

الفصل الأول

تمهيد

المبحث الأول: لمحة تاريخية وجغرافية عن الإسلام والمسلمين في الصين

المطلب الأول: دخول الإسلام إلى الصين:

مما جدال فيه أن الإسلام وصل إلى الصين عن طريق محوريين^٥، الأول منهما بري جاء إليها من العرب، وقُتل في فتح تركستان الشرقية في منطقة كاشغر^٦، فقبل أن ينتهي القرن الهجري الأول وصلت فوجات قتيبة بن مسلم الباهلي^٧ الحدود الغربية للصين، وعلى الرغم من أن الفتوحات الإسلامية لم تتوغل في أرض الصين، إلا أن طريق القوافل بين غرب آسيا والصين كان له أثره في انتشار الإسلام عن طريق التجار في غربي الصين، ولقد عرف هذا بطريق الحرير. وأما المحور الثاني فهو بحري حيث نقل الإسلام إلى شرقي الصين، ففي عهد

^٥ - بكر، سيد عبد المجيد. أقليات المسلمة في آسيا وإسترايا. ص ٨٠.

^٦ - كاشغر: مدينة من أشهر مدن تركستان الشرقية القديمة التي تسمى الآن سنجان بمعنى المنطقة الجميدة. (قاموس جغرافيا الصين. ١٩٩٥ م. دار النشر الجغرافية. بكين. ص ٤٥١).

^٧ - هو قتيبة بن مسلم الباهلي (٤٩هـ - ٩٦ هـ / ٦٦٩م - ٧١٥م) قائد إسلامي شهير قاد الفتوحات الإسلامية في بلاد آسيا الوسطى في القرن الأول الهجري. هو قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين بن الأمير أبو جحش الباهلي، وكان أبوه مسلم بن عمرو من أصحاب مصعب بن الزبير والي العراق من قبل أخيه أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير، وقاتل معه في حربه ضد عبد الملك بن مروان سنة ٧٢ هجرية، وقد نشأ قتيبة على ظهور الخيل رفيقا لل سيف والرمح، محبا للغوسية، وكانت منطقة العراق مشهورة بكثرة الفتن والثورات، لذلك عمل كل ولاية العراق على شغل أهلها بالغزوات لاستغلال طاقاتهم الثورية في خدمة الإسلام ونشر الدعوة، لذلك كانت أرض العراق هي قاعدة الانطلاق للحملات الحربية على الجبهة الشرقية للدولة الإسلامية، وقد اشترك قتيبة في هذه الحملات منذ شبابه المبكر، وأبدى شجاعة فائقة وموهبة قيادية فذة، لفتت إليه الأنظار خاصة من القائد العظيم المهلب بن أبي صفرة وكان خبيرا في معرفة الأبطال ومعادن الرجال فتفرس فيه أنه سيكون من أعظم أبطال الإسلام، فأوصى به لوالى العراق الشهير الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان يحب الأبطال والشجعان، فانتدبه لبعض المهام ليختبره بما ويعلم مدى صحة ترشيح المهلب له، وهل سيصلح للمهمة التي سيكلها له بعد ذلك أم لا. فتح خوارزم وبخارى، وسمرقند، بلخ، استشهد سنة ٩٦ هـ، وعمره ٤٨ سنة. (تاريخ الطبري ٦٦/٨. والبداءة والنهاية ٥٢/٩. والكمال لابن الأثير، ١٠٤/٤).

عثمان بن عفان رضى الله عنه، وصل مبعوث مسلم إلى الصين سنة ٣١هـ، ثم توالى البعثات الإسلامية على الصين حتى بلغ عددها ٢٨ بعثة في الفترة بين سنتي ٣١هـ (٦٥١م) - ١٨٤هـ (٨٠٠م)^٨ وتوالى على الصين عبر هذا المحور البعثات الدبلوماسية والتجارية وأخذ الإسلام ينتشر عبر الصين من مراكز ساحلية نحو الداخل.

وأما عن تاريخ دخول الإسلام إلى الصين، فهناك أقوال وآراء كثيرة، سواء في المصادر التاريخية الصينية أو في المصادر العربية التي تعنى بقضايا الأقليات الإسلامية، إلا أن معظم ما ورد في المصادر الصينية حول تاريخ وصول الإسلام إلى الصين من روايات وحكايات، لا يرى المؤرخون الفاتح أن لها أصلاً، ومن هذه الروايات رواية مشهورة مفادها أن ملك الصين الثاني من ملوك أسرة تانغ (Tang) الملقب بتايتسونغ (Tai zong)^٩ رأى في منامه حيواناً مفترساً يهاجمه بينما هو لا يجد منه خلاصاً، إذا برجل وقور يرتدي طيلساناً ويلبس عمامة بيضاء ويده سبعة أخذ يدافع عنه. فجمع الملك في الصباح جميع وزرائه وأمرائه فقص عليهم رؤياه وطلب منهم تفسيرها، فقول قائل منهم إن الحيوان المفترس رمز لثائر سيثور في البلاد، والرجل الوقور نبي من الأنبياء قد ولد في جزيرة العرب، ومعنى الرؤيا أن بلاد الصين لا يدوم أمنها وصلاحتها بدون بركة هذا النبي الكريم. فأوفد الملك وفداً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليطلب منه أن يبعث بعض لنشر الإسلام في الصين، فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم إلى طلبه وبعث مع الوفد ثلاثة من أصحابه الأفاضل توفي اثنان منهم في الطريق لمتاعب السفر، ولما قابل ثالثهم ملك الصين أكرمه وأحسن ضيافته وبنى له مسجداً في العاصمة لنشر الإسلام فهو نواة الإسلام في موطن بني الجنس الأصفر. وبناء على هذه

^٨ - حي، بدر الدين. د.ت. تاريخ المسلمين في الصين. بيروت - لبنان. ص ١٧.

^٩ - Tang tai zong: أحد ملوك أسرة تانغ، التي حكمت الصين قديماً بين أعوام (٦١٨م - ٩٠٧م) مؤسس الأسرة هو الملك لي يوان وخلفه ابنه لي شي مين والذي حكم بين أعوام ٦٢٦ إلى ٦٤٩م، وقد اشتهر بلقب الامبراطور تاي تسونغ والذي ساد في عصره الانفتاح السياسي والازدهار الاقتصادي، حيث عم الرخاء وازدهرت الزراعة والحرف اليدوية والتجارة، كما حصل تطور كبير في فنون الغزل والنسيج والصنع والفخار والخزف وصناعة السفن، كما قامت علاقات تجارية وثقافية واسعة مع مختلف بلدان العالم القديم مثل اليابان وكوريا والهند وبلاد العرب وفرنس. (وانغ يي. تاريخ الصين القديمة، ١٩٩٧م. دار الثقافة التاريخية الصينية. ص ٧٤).

وهناك رواية أخرى وردت في بعض الكتب التاريخية الصينية تختلف كثيرا عن سابقتها في قصة تاريخ وصول الإسلام إلى الصين وهي أن ملك الصين الأول من أسرة صي (Sui) الملقب بوندي (Wendi) رأى في ليلة من الليالي نجما باهرا فأمر رئيس الكهنة أن يتكهن له فوجد ذلك دليلا على ظهور رجل عظيم الشأن في بلاد العرب فأرسل الملك رسولا لتحقيق هذه القضية ووصل رسوله بعد سنة كاملة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب منه أن يسافر بنفسه إلى الصين فاعتذر إليه وبعث معه أربعة من صحابته منهم خاله سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وكان ذلك في سنة ٥٨٧ م^{١٢}، وروى أن رسول الملك صور صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلبه ولما رأى الملك صورته عليه السلام سر بها كثيرا وعلقها على حائط بلاطه ليسجد لها فمنعه سعد بن أبي وقاص فسأله عن سبب المنع فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنا عن عبادة الصور والتماثيل وأنه لا عبادة إلا لله الواحد القهار، فأعجب الملك بهذا المبدأ النبوي. وفي الكتب المعتمدة أن سعد بن أبي وقاص كان يعتذر إلى الملك بهذا الكلام نفسه إذ امتنع عن السجود للملك فعذره وأمر ببناء جامع في كوانغ دونغ (Guangdong) ليسكن في أروقته وسماه جامع الشوق إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو موجود إلى الآن فيه منارة تاطح السحاب وعليها مسحة من جمال الفن العربي. قيل إن سعد بن أبي وقاص انصرف أخيرا وقيل إنه عاش في الصين حتى دفن فيها بربض كوانغ دونغ تحت قبة جميلة لا مثيل لها في الصين.^{١٣}

١- محمد مكي. د.ت. نظرة جامعة إلى تاريخ الإسلام في الصين وأحوال المسلمين فيها. القاهرة: مطبعة عجب الدين الخطيب. ص ٦.

١١- Sui wen di: أحد ملوك الصين القديمة وكانت فترة حكمه بين ٥٨١م - ٦٠٤م (المعجم الصيني للأعلام، ص ١٢٥)

^{١٢} - هذه الرواية لا تصح، لأن النبي عليه السلام لم يشرفه الله بالنبوة إلا بعد هذا التاريخ في ٦١٠ م.

١٢ - محمد مكي. نظرة جامعة إلى تاريخ الإسلام في الصين وأحوال المسلمين فيها. ص ٣٠.

فبالرغم من أن هناك أقوالا كثيرة حول شخصية سعد بن أبي وقاص الذي ورد اسمه في سياق قصة وصول الإسلام إلى الصين، ولكن هل هو ذلك الصحابي الجليل؟ أم هو شخص آخر يحمل نفس الاسم من أوائل المسلمين الذين وفدوا إلى الصين من بلاد العرب؟ في حين أن كثيرا من المسلمين الصينيين لا يشكون في أنه هو الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص^{١٤} ذاته، إلا أن الشيخ محمد بن ناصر العبودي الذي زار الصين على رأس وفد رابطة العالم الإسلامي ونُحِث في القضية، يرجح أنه من الدعاة القادمين من البلاد العربية لنشر الإسلام في الصين، فلو كان عربيا وكان بعد البعثة النبوية بزمان بل بعد عهد الخلفاء الراشدين كما يتصور فجماء المتأخرون وزادوا في أمره حين رفعوا من قدره فقالوا إنه مبعوث من الرسول صلى الله عليه وسلم لإظهار الإسلام في الصين، لأنه لم يعرف هذا عن الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص لا في كتب السير ولا في كتب التاريخ المعروفة، بالإضافة إلى بعده عن الصور من الطاحية العقلية البحتة ذلك لأنه كان في زمن البعثة بين الصين وبلاد العرب بلدان كثيرة عظيمة على غير دين الإسلام هي أولى بالدعوة، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم قد فعل حين بعث برسائل إلى حكام البلدان القريبة من الجزيرة العربية مثل هرقل في الشام وكسرى في العراق وهودة بن علي الحنفي في البحرين، وتكفي الإشارة هنا إلى ما هو بدهي في التاريخ وهو أنه متى العراق الذي كانت تنطلق منه السفن إلى الصين بعد ظهور الإسلام وربما كان بعضها كذلك قبل ظهوره لم يكن قد دخله الإسلام بعد، إذ لم يفتح إلا في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

^{١٤} - سعد بن أبي وقاص: (٣٠ ق.هـ-٥٥هـ)، هو أبو إسحاق، سعد بن مالك أبي وقاص بن وهيب، القرشي الخزرجي، أحد السابقين إلى الإسلام، ومن العشرة المبشرين بالجنة، ومن قواد الفتوحات الإسلامية، ولد في مكة، وهو من بني زهرة أحوال النبي صلى الله عليه وسلم، أسلم وهو ابن سبعة عشر سنة، وهو أول من ضرب مشركا في سبيل الله، وأول من رمى بسهم في سبيل الله. شهيد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع غزواته، وقاد معركة القادسية وتوفى في العقيق، على مسافة عشرة أميال من المدينة المنورة، فحمل إليها، ودفن في البقيع. (العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر. ١٤١٥ هـ. الإصابة في تمييز الصحابة. تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض بيروت: دار الكتب العلمية ط١. ج ١. ص ٥٥٢).

^{١٥} - العبودي، محمد بن ناصر. ١٤١٤ هـ. في جنوب الصين - حديث عن المسلمين في ماضيهم وحاضرهم. مكة المكرمة: مطبعة رابطة العالم الإسلامي. ص ٩١.

لقد مر انتشار الإسلام في الصين عبر مراحل تاريخية ارتبطت بتاريخ الأسر الحاكمة في الصين، يمكن إيجازها في الآتي:

١- في عصر حكم أسرتي تانغ (Tang) وسونغ (Song) (٦١٨م-١٢٧٦م):

سبقت الإشارة إلى أن عدد البعثات التي وصلت إلى الصين في مدى قرن ونصف إلى ٢٨ بعثة، أطلق الصينيون عليها (Dashi) وأضيف إليها عبارة (أصحاب الملابس البيضاء) وهي إشارة إلى البعثات في ظل الحكم الأموي، ومنها ١٢ بعثة أطلقوا على أصحابها الداشي أصحاب الملابس السوداء، وهذا يعني أنها في العصر العباسي، ومن هنا يتضح أن البعثات التي كانت تصل إلى الصين ازدادت في العصر الأموي واستمرت في العصر العباسي^{١٦}، واستقرت بعض الجماعات المسلمة من التجار وعلماء الدين على ساحل الصين الجنوبي في منطقة جوان فو^{١٧}، ووصل المسلمون إلى عاصمة تشانغ آن (Chang an)، وأخذوا ينتشرون في مناطق متعددة^{١٨}. وهكذا ظهرت مناطق إسلامية في عهد أسرتي تانغ وسونغ في كوانغ دونغ (Guang dong)، وفي تشوان تشو (Quanzhou)، ومن أشهر الآثار الإسلامية في المنطقتين مسجد الشوق إلى النبي عليه الصلاة والسلام في كوانغ دونغ ومسجد الطاهر في تشوان تشو، وفي هذا المسجد حجر مكتوب فيه اسم مؤسسه وهو تاجر عربي يدعى عجيب مظهر الدين وقدم إلى هذه المدينة سنة ٥١٥هـ.^{١٩}

ثم ظهرت جالية إسلامية في عهد أسرة سونغ (Song) في مدينة هانغ تشو (Hangzhou) وزار ابن بطوطة هذه المدينة ووصفها ووصف أحوال المسلمين بها، كذلك انتشر الإسلام في

^{١٦} - حي، بدر الدين. تاريخ المسلمين في الصين. ص ١٧.

^{١٧} - وهي مقاطعة قوانغ دونغ حالياً. (قاموس جغرافيا الصين. ١٩٩٥م. دار النشر الجغرافية. بكين. ص ٢٢١).

^{١٨} - الكناي، على المنتصر. د.ت. المسلمون في المعسكر الشيوعي. مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي. ص ١٣.

^{١٩} - المرجع نفسه. ص ١٥.

منطقة يانغ تشو (Yang zhou) ووجدت جالية إسلامية في تشانغ آن، وهكذا انتشر الإسلام في عصرى تانغ وسونغ في مناطق عديدة، وكانت للمسلمين مساجدهم ومدارسهم وأنشطتهم التجارية والاقتصادية الأخرى^{٢٠}.

٢- المسلمون في عصر حكم أسرة يوان (Yuan) - المغول: ١٢٦٨م - ١٣٧٧م:

نُهِض المسلمون في عصر المغول بالصين نُهضة سريعة، وزاد نفوذهم، وشغلوا مناصب عديدة في الدولة، فظهر منهم السيد الأجل شمس الدين عمر وتقلد عدة مناصب، منها حاكم ولاية يونان في سنة ١٢٧٤م، وعمل أثناء حكمه على تثبيت أقدام المسلمين بهذه الولاية وبرز من بين المسلمين الذين تقلدوا مناصب مهمة في الدولة، حسن يوجينغ نائب رئيس الوزراء، ويدر الدين يوجينغ نائب ثان وظهير الدين والعديد من المسلمين، حتى وصل عددهم إلى ثلاثين شخصا، ولقد قولى المسلمون حكم ٨ ولايات من الصين في عهد المغول، وكانت الصين مقسمة إلى ١٢ ولاية، وهكذا كان للمسلمين شأن عظيم في حكم الصين في عهد أسرة يوان وزار الحالة^{٢١} بن بطوطة الصين في هذه الفترة وكتب عن المسلمين بالصين^{٢٢}.

٣- أحوال المسلمين في عهد حكم أسرة مينغ (Ming) (١٣٦٨م - ١٦٤٨م)

مع أن المسلمين اندمجوا في المجتمع الصيني منذ عهد المغول، إلا أنهم حافظوا على تقاليدهم الإسلامية، فظهرت أسماء صينية للمسلمين مثل (Ma) (ما) اختصارا لمحمد أو مسعود و (Ha) (حا) اختصارا لحسن و (Na) (نا) اختصارا لناصر الدين. وهكذا اكتسب الإسلام أتباعا جددا بالمصاهرة بين الأسر المسلمة من أصل عربي أو إيراني وبين الأسر الصينية، وظل المسلمون محتفظون بمناصب مهمة في الدولة الجديدة، ومن الشخصيات

^{٢٠} - المرجع نفسه. ص ١٧.

^{٢١} - يسمى أيضا عمر، سيد أجل بخاري، جاء إلى الصين بعد أن استسلم لجنكيسخان عند غزوه لبلاد العرب، تقلد مناصب عالية عديدة في الأسرة الحاكمة يوان. (مجلة جامعة نانكين. ١٩٨٤م. العدد ٤٤. ص ٣٧).

^{٢٢} - الطنجي، محمد بن عبد الله. رحلة ابن بطوطة. ١٣٢٢هـ. المطبعة الخيرية، مالكةها ومديرها السيد عمر حسين الخشاب. ج ٢. ص ١٩٤.

البارزة في عهد مينغ الحاج تشنغ خه (Zheng he)^{٢٣} وهو أكبر بحار يفتخر به تاريخ الصين القديم، وقاد عدة رحلات بحرية إلى ساحل الجزيرة العربية، وبلاد الفرس وشرق إفريقيا في سنة ٨٣٧هـ-١٤٣٣م^{٢٤}، كما كان للدين الإسلامي احترام عظيم في عهد حكم أسرة مينغ وظهرت الفنون الإسلامية في الفن المعماري الصيني^{٢٥}.

٤- المسلمون في عهد المنشوريين (١٦٤٤م-١٩١١م)

تغيرت أوضاع المسلمين في هذا العصر فكان عهد ظلم واستبداد بسبب جهل الموظفين المنشوريين بعادات المسلمين، لهذا ظهرت عدة انتفاضات قام بها المسلمون ضد ظلم واستبداد الحكام، فظهرت انتفاضات في تركستان الشرقية التي خضعت لحكم الصين في نهاية حكم المنشوريين، وظهرت انتفاضات في شمال الصين، ومن الانتفاضات الإسلامية انتفاضة المسلمين في ولاية يونان سنة ١٨٢٦م-١٨٢٨م، واستمرارها بعد ذلك وراحت ضحيتها نحو ١٠ آلاف مسلم، وانتفاضة المسلمين في مقاطعتي شانشي (Shan xi) وقانسو (Gan su) في سنة ١٨١٢م-١٨١٠م.

٥- المسلمون في العهد الجمهوري من سنة (١٩١١م)

^{٢٣} - ويسمى بالعربية حجتى محمود شمس. وهو بحار صيني مسلم ولد عام ١٤٧١هـ في أسرة مسلمة تدعى "مال" من قومية هوي (Hui) بمقاطعة "يونا" في جنوب غربي الصين. تربى في بلاط الأمير تشو دي من أسرة مينغ، أمير منطقة يان (منطقة بكين حالياً). قام برحلات عديدة زار فيها البلدان التي تقع على سواحل المحيط الهندي وجنوب آسيا وأفريقيا ووصل إلى منطقة الخليج والبحر الأحمر ومكة المكرمة وكان ذلك في سبع رحلات بحرية استغرقت ٢٨ عاماً حاملاً معه بضائع كثيرة من المنسوجات الحريرية والجوهرات والعقاقير الطبية الصينية. (ما، وين تشونغ. ٢٠٠١م. تاريخ القومية هوي. هونغ كونغ: دار النشر تيان ما. ص ٤٣).

^{٢٤} - malaysian encyclopedia research, p, haji yusuf liu baojun, A Glance at Chinese muslims

center berhad

^{٢٥} - المصري، جميل عبد الله محمد. د.ت. حاضِر العالم الإسلامي. مكتبة العبيكان. الطبعة الخامسة. ص ٥٦٦.

بعد انتهاء حكم المانشو سنة ١٩١٠م وإعلان الحكم الجمهوري على يد الدكتور صن يات صن (Song zhong shan)^{٢٦} في سنة ١٣٢٩هـ الذي أعلن أن الأمة الصينية تتكون من خمسة عناصر يشكل المسلمون إحداها وهي:

١- العنصر الصيني (الهانيون) (Han)

٢- المانشو (Man)

٣- العنصر المغولي (Meng)

٤- الهوي (المسلمون) (Hui)

٥- العنصر التبتاني (Tang)

وكان علم الجمهورية يتكون من خمسة ألوان، رمز للمسلمين باللون الأبيض^{٢٧}. ونال المسلمون حقوقهم بعد فترة من الاضطهاد دامت حوالى ثلاثة قرون، لهذا تعاون المسلمون مع الحكم الجمهوري، فقبل قضى المسلمون القرون الثلاثة السابقة في ظلم الفقر وظلام الجهل، لهذا بدأ المسلمون في العمادة بما فاقهم في ظل الحكم المنشوري.

وقد عبر الدكتور صن يات صن (Song zhong shan) رئيس الجمهورية الصينية عن هذا الظلم في بيان له جاء فيه: "ومن المعلوم أن (الهوي) (Hui) المسلمين كما يبدو من تاريخ الصين قد قاسوا أكبر المظالم وأوجع المصائب في القرون الأخيرة، فمن الطبيعي أن تكون

^{٢٦} - صن يات صن (Song zhong shan) قائد سياسي وفيلسوف ومنظر ثوري صيني. قام سنة ١٩١٢م بتشكيل حكومة مؤقتة في الصين بعد الإطاحة بأسرة تشينغ (Qing) التي حكمت الصين من عام ١٦٤٤م حتى عام ١٩١١م، وأعلن قيام الجمهورية في الصين عام ١٩١٣م. أول رئيس لجمهورية الصين ومؤسس الكومينتانغ (Guo min dang). (الموسوعة الصينية للأعلام. ٢٠٠٣م. دار النشر الثقافية. ص ٢٣١).

^{٢٧} - حي، بدر الدين. تاريخ المسلمين في الصين. ص ١٠١.

روح نضالهم أقوى و أشد...^{٢٨} ثم أضاف: "إنه من الصعب أن تبلغ الحركة الوطنية في الصين إلى أكبر درجة من النجاح في مرحلتها الأخيرة بدون مشاركة من المسلمين."^{٢٩}

وهكذا وضع الحكم الجمهوري في الصين المسلمين في الدرجة التي تليق بهم^{٣٠}. وظل المسلمون مخلصين للحكم الوطني بعد وفاة الدكتور صن يات صن (Song zhong shan)، ففي عهد خليفته الجنرال جانغ كاي شي (Jang jieshi)^{٣١}، حاربوا من أجل توحيد الصين كما حاربوا الاحتلال الياباني، وتكونت جمعية الصين الإسلامية لإنقاذ الوطن، واتصلت هذه الجمعية بالمسلمين خارج الصين، وكان للجمعية ٢٣ مركزا فرعيا في المقاطعات، و ٤٠٠ فرعا في المديريات، و ٩٠٠ مكتبا في جميع أنحاء البلاد، وأرسلت الجمعية بعثات طلابية إلى الخارج خصوصا إلى الأزهر، وأصدرت عدة مجلات إسلامية^{٣٢}.

وعلى الرغم من حصول المسلمين على نوع من الاحترام في ظل الحكم الجمهوري جراء مواقفهم المؤيدة للسلطة ومبادراتهم النشطة في الحفاظ على مصالح الدولة، إلا أن الأمر لم يخلو من وجود تحديات وسط هذا المحيط الطاهر من البشر من مختلف النزعات والديانات والقوميات، فعلى الرغم من إخلاص المسلمين للمهد الجمهوري في حكم صن يات صن، وفي عهد خليفته الجنرال جانغ كاي شي، ففي سنة ١٩١١م وقع صدام مسلح بين المسلمين وحاكم مقاطعة شينغكيانج (Xin-jiang)^{٣٣} أدى إلى قتل عشرات الآلاف من

^{٢٨} - محمد مكين. نظرة جامعة إلى تاريخ الإسلام في الصين. ص ٥٢.

^{٢٩} - المرجع نفسه. ص ٥٣.

^{٣٠} - نفسه. ص ١٣٢.

^{٣١} - جانغ كاي شيك، ولد في ٣١ أكتوبر ١٨٨٧م وتوفي في ٥ أبريل ١٩٧٥م قائد سياسي وعسكري صيني تولى رئاسة حزب الكومنتانج الوطني بعد وفاة صن يات سين عام ١٩٢٥م وقاد الحكومة الوطنية لجمهورية الصين من عام ١٩٢٨م لعام ١٩٧٥م وقاد (حملة الشمال) لتوحيد الصين ضد أمراء الحرب والتي أدت لأن يصبح رئيس جمهورية الصين عام ١٩٢٨م. (الموسوعة الصينية للأعلام. ٢٠٠٣م. دار النشر الثقافية. ص ١٢٢).

^{٣٢} - محمد مكين. نظرة جامعة إلى تاريخ الإسلام في الصين. ص ١٣٦.

^{٣٣} - تركستان الشرقية القديمة، تسمى حاليا شينغكيانغ بمعنى المنطقة الجديدة.

المسلمين، وحدث صدام آخر بين المسلمين والسلطات الحاكمة في مقاطعة قانسو^{٣٤} في ١٩٢٨م، نتج عنه مقتل العديد من المسلمين، كما حدثت عدة صدامات بين المسلمين السلطة في مقاطعة نينغشيا (Ning xia)، ورغم هذه التحديات فإن الأمر لا يقارن بالمعاناة التي قاسي منها المسلمون في العهد الذي ينتظرهم.

وبعد أن استولى الحزب الشيوعي على حكم الصين في عام ١٩٤٩م بعد انتصاره على الحزب الوطني، هدد المسلمين في أول الأمر، وذلك إكراما لهم لوقوفهم معه أثناء الحرب الأهلية، ونص الدستور الصيني الجديد على حرية العبادة، ولكن لم يكن لهذه النصوص أثر في الواقع التطبيقي لأن الأحداث التي وقعت بعد مرور فترة من الزمن كتطبيق نظام الكميونات^{٣٥} ونظام المعيشة المشتركة^{٣٦} ومصادرة أملاك الأوقاف الدينية جعلت المسلمين كأصحاب الأديان الأخرى سواء بسواء في كارثة كبرى أبعدتهم عن الحياة الدينية تماما، وأصبح أئمة المساجد وعلماء الدين في ظل هذه الظروف القاسية أول من يستهدف للاعتقال والسجن والتعذيب، فأحرقت المصاحف والكتب الدينية وأغلقت المساجد بل وهدم الكثير منها، كما أغلقت المدارس الإسلامية وشرد المدرسون، ويمكن اختصار هذه الفترة في المراحل الأربع التالية

المرحلة الأولى: من سنة ١٩٤٩م إلى ١٩٥٨م

ويمكن أن نطلق على هذه الفترة ذروة المواجهة لأنها ساهمت في الإعداد لتأسيس الدولة، فكان لابد من مداينة جميع الأطراف التي تشكلت حين المجتمع الصيني، ولأن هم الحزب الشيوعي الحاكم تثبيت السلطة وسط هذا المحيط البشري، لذلك كانت قضية المسلمين في الصين غير مثارة إلا بقدر يحسن علاقات الصين بالعالم الإسلامي، فلقد أطلق مصير ملايين

^{٣٤} - إحدى المقاطعات الصينية الكبرى في شمال غربي الصين.

^{٣٥} - بحيث يقسم سكان المنطقة إلى وحدات معينة على صورة أسر، يعيش أفراد الأسرة الواحدة مع البعض، يأكلون معا ويعملون معا.

^{٣٦} - عبارة عن نفس طريقة المعيشة في الكميونات.

^{٣٧} - حي، بدر الدين. تاريخ المسلمين في الصين. ص ١٠٣.

المسلمين في الصين العالم الإسلامي في ظل الحكم الجديد، فحاولت السلطة الحاكمة إرضاء العالم الإسلامي، وظهرت الجمعية الإسلامية الصينية في سنة ١٩٥٣م كجمعية وحيدة تمثل المسلمين، وألغيت الجمعيات الإسلامية السابقة وعقد أول مؤتمر للمسلمين في ظل النظام الجديد في نفس السنة، وصدرت مجلة (المسلمون في الصين) في العام التالي له، وأنشئ معهد العلوم الإسلامي الصيني في عام ١٩٥٥م، وقد نص الدستور الجديد على حرية الاعتقاد، وهكذا كانت هذه المرحلة مهادنة لأصحاب جميع الأديان.

المرحلة الثانية: من سنة ١٩٥٨م - ١٩٦٦م

وكانت مرحلة انتقالية للمرحلة العنيفة التي تليها، فبدأت السلطات في إنشاء ما يسمى بالكوميونات، ولم تقدم السلطة على هذه الخطوة إلا بعد أن أحكمت الهيمنة على مقاليد الأمور، وكان في هذه المرحلة مسلسل بشعور المسلمين متمثلاً في تطبيق نظام الكوميونات على جميع المسلمين بحيث وزعوا مع أئمتهم وعلماء دينهم على المزارع والمصانع الجماعية، وتصاعد القلق عند المسلمين عندما بدأت السلطات تنادي بضرورة استخدام المساجد للأغراض الاقتصادية كتحويلها إلى مصنع أو مخازن وغيرها فزاد من قلق المسلمين لأن هذه الحملة كانت مقدمة لإغلاق العديد من المساجد، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تغلق فيها المساجد منذ سنة ١٩٤٩م، فقد أدى هذا إلى تعطيل قيام المسلمين بشعائر دينهم، وتلى ذلك توقف المعهد الإسلامي الذي أنشئ في المرحلة السابقة، وكان من أهم النوافذ التي يتلقى منها المسلمون الصينيون علوم دينهم، وتوقف إصدار مجلة المسلمون في الصين، كما توقف سفر بعثات الحج، ثم تلى ذلك خطوة أشد تنكيلاً، وهي تهجير المسلمين من مناطق الكثافة الإسلامية العالية إلى مناطق أخرى وتهجير غير المسلمين إلى مناطق المسلمين، وكل هذا كان تمهيداً للمرحلة القادمة.

المرحلة الثالثة: من سنة ١٩٦٦م - ١٩٧٦م

هي أشد مراحل العنف، وتسمى بمرحلة الثورة الثقافية الكبرى، هذا الزلزال الذي قلب الصين رأساً على عقب، تصفه السلطات الحاكمة بعدها بفترة حكم عصابة الأربعة^{٣٨}، فماذا حل بالمسلمين في هذه الفترة؟

يصف الحاج إلياس شين (Shen) نائب رئيس الجمعية الإسلامية أوضاع المسلمين في تلك الفترة العنصرية بقوله: "هذه مسألة يطول شرحها، بل والإمام بها، لأنهم خربوا كل شيء في الصين، فلقد قبض على رئيس الجمعية الحاج محمد علي تشانغ (Zhang) وضرب وعذب وسجن، وهكذا كان مصير نواب رئيس الجمعية في الولايات الصينية، وضرب رجال الدين في الشوارع. واقتحم شباب عصابة الأربعة بيوتهم وأخذوا المصاحف والكتب وأحرقوها علانية في الشوارع، وفقد المسلمون الصينيون مخطوطات نادرة، وامتدت الحملة إلى المساجد فأغلقت في سنة ١٩٦٦م الكثير منها، وحول البعض الآخر إلى ورش ومخازن، وأبقوا على مسجد واحد في بكين ليصلى فيه الدبلوماسيون المسلمون، وألغيت العطلات الإسلامية المعترف بها من الدولة، ومنع المسلمون من ارتداء ثيابهم القومية، وأجبروا على ارتداء الملابس الزرقاء، وألغيت التصاريح التي كانت تصرف بها أكفان الموتى، وهكذا أصبحت حرية العبادة المكفولة بمقتضى المادة ١٨ من دستور سنة ١٩٥٤م حبرا على ورق، وفي سنة ١٩٧٥م تظاهر المسلمون في ولاية يونان مطالبين بعطلة يوم الجمعة^{٣٩}.

المرحلة الرابعة: من سنة ١٩٧٦م إلى الوقت الحاضر

^{٣٨} - عصابة الأربعة Gang of Four هو اسم أطلق على مجموعة سياسية يسارية مؤلفة من أربعة مسؤولين في الحزب الشيوعي الصيني. برزوا إلى الأضواء أثناء الثورة الثقافية (١٩٦٦ - ١٩٦٧) وأتمموا بارتكاب سلسلة من جرائم الخيانة. والأعضاء الأربعة هم جيانج كينج وهي زوجة ماو تسي تونغ الأخيرة وكانت عضوا قياديا في الحزب، والمقررين لها تشانغ تشون تشياو وياو ون يوان ووانغ هونغ ون. وسيطرت عصابة الأربعة بشكل فعال على أجهزة السلطة في الحزب الشيوعي الصيني خلال المراحل الأخيرة من الثورة الثقافية، رغم أنه لم يتضح أي من القرارات المتخذة أثناء الثورة كانت بأمر من ماو تسي تونغ وتنفيذهم، وأنها كان من تنفيذهم هم مباشرة. (الموسوعة الصينية للأعلام. ٢٠٠٣م. دار النشر الثقافية. ص ٢١١).

^{٣٩} - حي، بدر الدين. تاريخ المسلمين في الصين. ص ١٥.

كانت بداية هذه المرحلة عبارة عن صراع على السلطة لتصفية عصابة الأربعة، واستغرق هذا الصراع زهاء عامين، ثم بدأت مرحلة جديدة عام ١٩٧٨م، شهدت أحوال المسلمين فيها تحسناً في أوضاعهم بصفة عامة، يصفها الحاج محمد علي تشانغ بقوله: "إن النص الذي في الدستور بخصوص حرية العقيدة لسائر المواطنين أعيد بعد حذفه في ظل تسلط عصابة الأربعة على الحكم، وأصبح النص المعدل في دستور سنة ١٩٧٨م كما يلي: جميع المواطنين لهم حرية الاعتقاد الديني، كما لهم الحق في عدم الاعتقاد. وأضيفت مادة في قانون العقوبات سنة ١٩٧٩م (برقم ١٤٧) تنص على معاقبة موظفي الحكومة بالسجن بحد أقصى سنتين أو بالحبس إذا ما فرطوا في تجريد المواطنين من حريتهم في عقيدتهم الدينية، وانتهكوا حرماناً وعبادات أبناء الأقليات القومية على نحو غير شرعي، كما أن هناك وعد بإعادة فتح المعهد الإسلامي في بكين، وإعادة إصدار مجلة المسلمون واستئناف بعثات الحج، وإعادة جسر الاتصال بالعالم الإسلامي، وفتح المساجد المغلقة وإعادة العطلات الإسلامية. وبالفعل بدأ افتتاح تدريجي للمساجد في سنة ١٩٧٩م، وساهمت الحكومة في نفقات إصلاحها، وسمحت الحكومة بدخول أعداد من المصاحف من الدول العربية، كما قامت حكومة الصين ببعض الخطوات العملية لإعادة جسر الاتصال بالعالم الإسلامي، من ذلك إرسال وفد من مسلمي الصين لزيارة عدد من الدول المسلمة كباكستان والبحرين والكويت وعمان واليمن الشمالي وإيران، وإرسال مندوبين من الجمعية الإسلامية الصينية لحضور المؤتمر الإسلامي في باكستان، وفي نفس العام عقدت الجمعية الإسلامية الصينية مؤتمرها الرابع وأعلنت عن مشروعها لطبع القرآن الكريم والكتب الإسلامية. فمنذ ذلك الوقت بدأ المسلمون في الصين يجدون حرية طالما فقدوها في الممارسات الدينية من أداء الصلوات في المساجد والصوم في شهر رمضان وأداء فريضة الحج وتلقي العلوم الإسلامية، فبين ١٩٨٠م - ٢٠٠٠م، أقيمت مئات المدارس والمعاهد الإسلامية غير المعاهد الإسلامية الحكومية على أيدي العلماء المسلمين بالتعاون مع التجار المسلمين الصينيين في مختلف مقاطعات الصين، ووجد مئات الألوف من شباب المسلمين في الصين فرصة لتلقي علوم

دينهم في هذه المدارس والمعاهد فأخرجت هذه المدارس والمعاهد عددا كبيرا من الأئمة والدعاة المتميزين فيما بعد، كما أصدرت عشرات المجلات الإسلامية في العديد من المقاطعات الصينية، فالتى بقيت وتطورت من هذه المعاهد والمنشورات إلى الوقت الحالي عددها ليس كبيرا ولكنها قوية وتلعب دورا كبيرا في إعداد الدعاة والأئمة هي تلك التي تملك التخطيط الاستراتيجي منذ بداية تأسيسها وتتسم بالحكمة في التعامل مع المجتمع الصيني والسلطة الصينية.^{٤٠}

المطلب الثاني: عدد المسلمين في الصين

- أثارت قضية عدد المسلمين في الصين كثيرا من الجدل، ومرد هذا الجدل يعود إلى أسباب عديدة منها:
- ١- اعتماد الحكومة الصينية في إحصاء السكان على أساس القوميات، لا على أساس الديانات.
 - ٢- عدم قيام الجهات الإسلامية بالإحصاء الدقيق لعدد المسلمين في الصين.
 - ٣- الثغرات التي تخللت تقدير عدد المسلمين في الصين حتى في الاجتهادات الفردية.
 - ٤- يغلب على كثير من الإحصائيات الفردية لعدد المسلمين في الصين أنها تخمينية، ولم يكن أساسها الإحصاء الدقيق.
 - ٥- المصادر الغربية لا تذكر حقيقة عدد المسلمين في الصين، وإنما تحاول تقليل عددهم بشكل لا يقبل الجدل.

^{٤٠} - المرجع نفسه، ص ١٦.

٦- التشكيل البشري للمسلمين في الصين يضم العديد من العناصر، تعكس صورة الهيكل السكاني للصين، ويجعل الاجتهاد في محاولة دقيقة لتحديد عدد المسلمين في الصين من الأمور الصعبة، فتعدد العناصر وتعدد اللغات أمر مألوف بين سكان الصين.

تقديرات الحكومة الصينية لعدد المسلمين في الصين:

ذكرنا آنفاً أن الحكومة الصينية لا تقوم بإحصاء السكان على أساس الديانات، وإنما على أساس القوميات، حيث قدرت القوميات التي تعتنق الإسلام بحوالى ١٠ ملايين نسمة في تعداد سنة ١٩٥٣م، وكان عدد سكان الصين في الإحصاء الرسمي الذي أجرى في سنة ١٩٥١م ٥٨٣٢٦٩٠٠٠ نسمة، وبقي هذا العدد كما هو بعد مضي ١٧ سنة في سنة ١٩٧٠م، ولم يتجدد، بينما كان عدد المسلمين في الصين في الكتاب السنوي الصيني في سنة ١٩٣٦م يقدر بـ ٤٨ مليون نسمة، وقدرت نسبة المسلمين الصينيين بـ ١٢% من جملة سكان الصين.^{٤١}

أما عدد المسلمين الصينيين الذي أعلنه الحكومة الصينية للعالم منذ سنين و إلى اليوم فلا يتجاوز عن ٣٠ مليون نسمة.

التقديرات الغربية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر
"قدر ترست M.de Thiersant عدد المسلمين في الصين سنة ١٨٧٩م بحوالى ٢٠ مليون نسمة، واعتبره البعض مبالغاً، ولكن أيده بعد مضي نصف قرن في هذا الرقم كلاودي آل بيكنز Claude L.Pickens سنة ١٩٣٦م، حيث يرى أن البعثات التبشيرية في البلاد لم ترغب في ذكر العدد الحقيقي للمسلمين في الصين. ولقد اتهم ترست Thiersant بالمبالغة ولكن الحقائق الواضحة اليوم أماننا تجعل تقديره يقترب من الحقيقة."^{٤٢}

^{٤١} - بكر، سيد عبد المجيد. أقليات المسلمة في آسيا وإستراليا. ص ١٠٢.

^{٤٢} - المرجع نفسه. ص ١٠٠.

ثم قدر مرشال برومهول Marshall Broomhall عدد المسلمين في الصين في سنة ١٩١٠م بحوالى ٩٨٢١٠٠٠ نسمة، واعتمد برومهول في تقديره على ٨٠٠ بعثة تنصيرية بالصين، وهذا مصدر للشك في صحة التقدير الذي ذكره برومهول، فماذا يصنع مثل هذا العدد الضخم من البعثات التنصيرية بالصين في أوائل القرن العشرين؟ ولا يمكن الاعتماد على تقدير البعثات التنصيرية لعدد المسلمين في الصين أو غيرها، فإذا كان هدف وجودهم بالصين مضاد للإسلام، فكيف نعتبرهم مصدرا لحقيقة عدد المسلمين بها؟ ولقد اعتمد على تقدير برومهول العديد من الباحثين الغربيين، غير أن كلمة حق تأتي من مقدمة كتاب برومهول جعلت الشك يقينا في عدم صحة تقديره، في مقدمة كتابه (الإسلام في الصين) ذكر المؤتمر التنصيري العالمي: "يفوق عدد المسلمين في الصين سكان الجزيرة العربية، وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن والعراق ومصر وإيران".^{٤٣}

وفي نفس الوقت قدر E.M. Wherry عدد المسلمين في الصين بحوالى ٥٠ مليون نسمة، وقدرهم A.H. Keane بـ ٢٠ مليون نسمة) وأخذ بهذا الرقم كتاب Staesman Year Book وقدر عدد سكان الصين في سنة ١٩١٠م بـ ٤٥٣٠٠٠٠٠ نسمة، وبذلك تكون نسبة المسلمين بين سكان الصين ٥٧٪، كما قدرها Broomhall، وفي سنة ١٩٣٦م جاء تقدير عدد المسلمين في الصين في كتابين سنويين صدرا باللجنة الإنجليزية في الصين، الأول كتاب أبناء شمال الصين اليومية North China Daily News قدر عدد المسلمين الصينيين بين ١٥ - ٢٠ مليون نسمة وصدر الكتاب الثاني من Commercial Press وقدر عدد المسلمين في السنة السابقة الذكر بحوالى ٤٨ مليون نسمة، وتلقف الباحثون الغربيون الرقم التقديري لعدد المسلمين في الكتاب الأول (من ١٥ - ٢٠ مليون نسمة) وأضيف إلى الرقم الذي قدره برومهول، وبنيت عليه تقديراتهم فيما بعد^{٤٤}.

^{٤٣} - المرجع نفسه. ص ١٠١.

^{٤٤} - المرجع نفسه. ص ١٠١.

^{٤٥} - المرجع نفسه. ص ١٠٢.

التقديرات الإسلامية لعدد المسلمين في الصين:

قدر عدد المسلمين في الصين بـ ٧٠ مليون نسمة في سنة ١٨٩٤م من قبل بعض المسلمين الصينيين واعتبره البعض مبالغاً فيه، وفي سنة ١٩٠٦م قدر عددهم بـ ٣٤ مليون مسلم من قبل بعض المسلمين الصينيين كذلك، كما قدر عددهم S.Chandra Dass (هندي بنغالي) بـ ٥٠ مليون نسمة (مبالغ فيه)^{٤٦}، ثم حدثت فجوة في التقديرات امتدت حتى سنة ١٩٣٦م عندما حدد أول رقم في الكتاب السنوي الصيني بتقديرهم بـ ٤٨ مليون نسمة، واعتمد الكثير من الباحثين المسلمين على هذا التقدير، وقدروا المسلمين الصينيين بـ ١٢% من جملة سكان الصين، ومنهم سيد خليل شيبتي، وقدر عدد المسلمين في الصين في سنة ١٩٧٩م بـ ١١٩ مليون مسلم، منهم على المنتصر الكتاني. هذا ولم نعثر على إحصائيات معتمدة منذ ١٩٨٠م إلى اليوم، فإذا صح تقدير نسبة المسلمين الصينيين بـ ١٠% من جملة سكان الصين، فيكون عددهم في الوقت الحاضر لا يقل عن ١٤٠ مليون مسلم على أقل تقدير.

^{٤٦} - المرجع نفسه. ص ١٠٣.

المبحث الثاني

لمحة عن واقع المسلمين السياسي والاقتصادي والاجتماعي في الصين

المطلب الأول: الواقع السياسي للمسلمين في الصين

بما أن الصين عبر تاريخها الطويل لم تكن يوما من الأيام بلاد الإسلام، فمن الطبيعي أن تختلف بل وتضطرب أوضاع المسلمين فيها منذ تاريخ وصولهم إليها بين صعود وهبوط حسب اعتبارات عديدة منها:

١- حسب ميل حكامها إلى الانفتاح أو الانغلاق وإلى الانسانية السمحة أم القومية الضيقة، ففي الحالة الأولى يجد المسلمون فرصة كغيرهم من الأمم الوافدة المستوطنة في الصين ليتمتعوا بالحقوق والمساوات، ولما في الحالة الثانية فيعانون غالبا من أنواع الطرد والحرمان والظلم والويلات.

٢- حسب تفوق المسلمين أنفسهم وتخلفهم في تعاملهم الديني والأخلاقي والسياسي والتجاري والاجتماعي مع بقية القوميات الصينية ومدى مساهمتهم في تنمية البلاد والنهوض بها. فمن ذلك ما يتمتعون في بعض مراحل التاريخ من ارتفاع مكانتهم السياسية وبالتحديد في عصور حكم الأسر الحاكمة سونغ ويوان ومينغ (Song yuan ming)، وأما فقد هذه الميزات في بعض المراحل التاريخية الأخرى فلا بد له أسباب ذاتية نابعة من ضعف المسلمين أنفسهم في جوانب الحياة المختلفة بالإضافة إلى الأسباب الموضوعية التي ترجع إلى ضيق أفق الحكام وتمسكهم بالقومية الممقوتة وممارسة سياسة الظلم والاضطهاد ضد الشعوب الأقلية الأخرى، فلننظر في الصفحات التالية أوضاع المسلمين السياسية عبر تاريخ الصين.

إن الأسرة الحاكمة تانغ في نظر المؤرخين بصفة عامة كانت أسرة تحكم الصين بسياسة التسامح والانفتاح وهي ترحب بإقامة العلاقات السلمية مع كافة دول العالم، فالتجار الذين جاءوا إلى موانئها ومدنها واستقروا بها لم يكونوا مطالبين بتغيير عاداتهم وتقاليدهم بما فيها من دياناتهم ومعتقداتهم بل ويسمح لهم أن يقيموا في أحياء إقامتهم المحاكم الدينية والمساجد، فالتاجر العربي سليمان السيرا في الذي مارس التجارة في الصين سنوات عديدة ألف كتابا بعد رجوعه إلى بلاده أسماه "الرحلة" وصف فيه أحوال الأحياء المخصصة للجاليات الإسلامية في الصين ويقول: "إن أحياء الجاليات الإسلامية يرأسها أمير منتخب من المسلمين يعترف بمكانته السلطة الحاكمة بل وتوظفه، مهمته إدارة جميع أمور الأحياء بما فيها من حسم الخصومات بين الناس بالشريعة الإسلامية من غير أن يتدخل فيها السلطة الحاكمة، وبالأحياء أسواق المسلمين ومدارسهم ومساجدهم ومقابرهم، فأمر الأحياء هو حاكم المسلمين وقاضيه وإمامهم الذي يوجههم في حياتهم الدينية والدنيوية."^{٤٧}

ومما يدل على تأثير مكانتهم السياسية بتفوقهم في جوانب الحياة المختلفة أنه "كان ملوك الصين يجاملون المسلمين على ظهر مناهم الذكاء والولاء والشجاعة والعزيمة ويشملوهم بالعناية والرعاية، فعاش المسلمون في حكم الأصقاع راضين مطمئنين يقومون بشعائر دينهم حيث ماشاءوا لاسيما ملوك أسرة يوان وهي أسرة جنكيزخان (سنة ١٢٧٧م - ١٣٤١م) وأسرة مينغ (سنة ١٣١٨م - ١٦٢٨م) وكان في هاتين الأسرتين للمسلمين عند الحكومة منزلة سامية لم يعلمها التاريخ فظهرت براعة المسلمين في السياسة والقيادة فتولى المناصب العالية السيد الأجل المشهور بالأمير شيان يانغ وانغ وأولاده وأحفاده وبعث الملك تشين زو (Chen Zhi) الخصي المسلم تشين خه سنة ١٤٥٦م قائدا للأساطيل الصينية المؤلفة من سبعة وثلاثين ألف بحري إلى جزائر الهند الشرقية وسيلان وسواحل الهند الجنوبية والعراق وسواحل جزيرة العرب وساحل إفريقية الشرقية... لذلك عد المؤرخون هذا الرجل من كبار ساسة الصين في

^{٤٧} - ما، وين تشونغ. ٢٠٠١م. تاريخ القومية هوي. هونغ كونغ: دار النشر تيان ما. ص ٥.

القرون الأخيرة^{٤٨} وهكذا ظهر كثير من الشخصيات الإسلامية السياسية البارزة في مختلف مناطق الصين ، مما ساعد في انتشار الإسلام في الصين وارتفاع مكانة المسلمين فيها.

لما كان للمسلمين من الشجاعة والبراعة والمنزلة السامية لدى الأسرة الحاكمة مينغ خافت الحكومة المنشورية التي أخذت زمام الحكم بعد أسرة مينغ من تعاون المسلمين مع الصينيين لإعادة الدولة السابقة فأخذت تحذر المسلمين وتضطهدهم وتسومهم خسفاً وتسلط عليهم الصينيين لإيقاع التباغض بينهم فوقعت فعلا الثورات الدامية الداهية في خلال مائة سنة (١٧٥٨م-١٨٧٣م) خمس مرات وأكبرها في ولاية يونان. علما بأن هذه الفتن لم تنشأ عن تباين العقائد والشعائر بل نشأت عن سياسة الأسرة المنشورية الجائرة الظالمة.

ولما دخل تاريخ الصين في العهد الجمهوري قررت السلطة في دستورها أن الأمة الصينية مكونة من خمسة شعوب يرمز إليها خمسة ألوان في علم الدولة بالترتيب: الأحمر يرمز إلى شعب الهانين والأصفر يرمز إلى شعب المنشوريين والأزرق يرمز إلى شعب المنغوليين بينما الأبيض يرمز إلى شعب المسلمين والأسود يرمز إلى شعب التبتين، وقررت في الدستور أيضا حرية التدين والمساوات في الحقوق والواجبات بين الشعوب للمسلمين ما لأبناء وطنهم وعليهم ما عليهم ولهم مجال واسع في ممارسة مصالحهم الدينية والدنيوية، غير أن الوضع تغير بعد ذلك وأصبح العلم يشمل ثلاثة ألوان فقط وهي الأبيض والأزرق والأحمر وهو صمم على شكل شمس بيضاء على سماء زرقاء وبأرضية حمراء باعتبار شعب الهانين أصل الأمة الصينية والشعوب الباقية فروعها.

وبعد قيام الصين الجديدة عام ١٩٤٩م بقيادة الحزب الشيوعي دخل المسلمون في طور جديد من تاريخهم ولقد هادن الشيوعيون المسلمين أول الأمر وذلك كجزء لحسن تعاوهم أثناء الحرب الأهلية ونص الدستور الصيني الجديد في عهد الشيوعيين على حرية العبادة شأنه

^{٤٨} - المرجع نفسه، ص ٤٦.

في ذلك شأن الدستور السوفيتي ولكن هذه النصوص مجرد شعارات جوفاء ذراً للرماد في العيون تتلاشى عند التطبيق وشكلت السلطات الجمعية الشيوعية الصينية الشعبية الإسلامية وكان الهدف من هذا وقوف المسلمين وراء التنظيم الجديد وإيهام زوار الصين من الدول الإسلامية بحرية ممارسة المسلمين لعقيدتهم من خلال المعلومات المعدة مسبقاً من قبل الجمعية وذلك لخدمة النظام الحاكم ولقد وزعت هذه الجمعية نشرات مطوّلة عن منح الحكم الذاتي للمسلمين في الصين ضمن ٣٤ مقاطعة وكلها معلومات مزيفة فمجريات الأحداث أثبتت عكس ما ادعته هذه النشرات فلقد فرض على المسلمين نظام الزواج المختلط^{٤٩} ونظام "الكميونات"^{٥٠} ونظام المعيشة المشتركة وصادرت السلطات أملاك الأوقاف الإسلامية وقضى هذا على مرتبات الوعاظ والمدرسين فاضطروا للعمل داخل "الكميونات" وقاوم المسلمون هذا التسلط في ولايات قانسو وتشينغهاي وتركستان الشرقية والتبت فقبض الشيوعيون على زعماء المسلمين وأودعوا السجن وأحرقت الكتب الإسلامية وأغلقت المساجد وهدم الكثير منها، كما أغلقت المدارس وشرّد علماء الدين وفر العديد منهم إلى الخارج. وفي سنة ١٩٧٦م توفي ماو تسي تونغ زعيم الحزب الشيوعي ورئيس البلاد وانتهت الثورة الثقافية وقدم اتباع ماو وبطائه الدين كانوا يعرفون بعصاة الأربعة إلى المحاكمة وانتهجت الصين سياسة الإنفتاح لتحسين صورتها في العالم وبدأت بمحاولات لإقامة علاقات مع العالمين العربي والإسلامي حرصاً على مصالحها الاقتصادية والسياسية فأظهرت نوعاً من الليونة والمهادنة تجاه المسلمين ولكن تحت رقابة صارمة لأي نشاط إسلامي فالنظام الشيوعي عمل على تفرغ المساجد من العلماء حيث جرى توزيعهم ضمن الطبقة العاملة على الحقول والمصانع كما أنه عمد على قطع الصلة بين المسلمين وبين مساجدهم لأنها المصدر الوحيد الذي يتلقون فيه المعارف والعلوم الإسلامية وحرمانهم منها يهيئهم لتلقي الفكر الإلحادي، كما شكلت مجموعة عمل رسمية وغرضها مقاومة الإسلام وآثاره

^{٤٩} - أي الزواج بين المسلمين وغير المسلمين بنوع من الإكراه.

^{٥٠} - تم التعريف بها في صفحة ٢٢.

الثقافية تولت ترتيب إصدار جميع الإجراءات المضادة للإسلام، كما أنها جمعت وأحرقت مجموعات كبيرة من المصاحف والكتب والمخطوطات الإسلامية النادرة وذاق العلماء الولايات من القتل والإعتقال حولت المساجد إلى مستودعات تخزين أو مدارس علمانية وألغى استعمال الحروف العربية في الكتابة وبخاصة في تركستان الشرقية لقطع الشباب عن تراثهم الفكري ولذا نشأ جيل لا يعرف عن الإسلام سوى مشاعر الاعتزاز بالانتماء إليه وحاولت أن تصرف المثقفين المسلمين عن قيادة إخوانهم بتسليمهم مناصب قيادية في بعض المؤسسات وقابل المسلمون هذه المحاصرة بنقل بعض الأنشطة الإسلامية إلى المنازل وإن كان ذلك على نطاق محدود، كما تعاني ثقافة المسلمين في الصين من الخلط بين الإلتواء المذهبي وبين تأثيرات الفكر الشيوعي كما نلمس أثر العادات والتقاليد الصينية في حياة المسلمين . ولعل إهمال المسلمين في العالم الإسلامي لإخوانهم في الصين يزيد من هذه التوجهات ويكفي أن نشير إلى أن المسلمين من محافظة قانسو قد توزعوا بين ٢٤ فرقة مختلفة كل منها يزعم أنها على حق ويعتبر شعبه لتوجهات الفرق الأخرى مما يولد الخلاف والنزاع وتشتت الجهود.^{٥١}

المطلب الثاني: الواقع الاقتصادي للمسلمين في الصين

أما عن الوضع الاقتصادي لمسلمي الصين، فمن المعروف أن التجارة تحتل مكانة هامة في الإسلام، ويشتمل القرآن الكريم في أكثر من موضع على آيات تتعلق بالمفاهيم والنظم الخاصة بالشؤون الاقتصادية، وهذا له تأثيره العميق على سلوكيات المسلمين في حياتهم الاقتصادية. فبصفة خاصة، يتميز المسلمون في الصين من أبناء قومية هوي وقومية الويغور في شمال غربي البلاد ببراعتهم في ممارسة التجارة، وهذا واقع يقر به الجميع، داخل الصين

^{٥١} - ما، وين تشونغ. تاريخ قومية هوي. ص ٢٤.

وخارجها.

ويرجع تفوق المسلمين الصينيين في ممارسة التجارة إلى ثلاثة أسباب:

الأول: أنهم من نسل التجار العرب والفرس الذين جاءوا إلى الصين للتجارة، واستوطنوا فيها، فتوارث الأبناء والأحفاد مهنة الآباء جيلاً بعد جيل حتى اليوم. وحتى الذين انتقلوا إلى أعمال أخرى - مثل الزراعة أو غيرها - لأسباب شتى، ظلوا متعلقين بالتجارة ويمارسونها كمهنة ثانوية مدفوعين بموروثهم التجاري.

الثاني: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاءه الراشدين كانت لهم اهتمامات كبيرة بكسب الرزق الحلال، بل ورسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه مارس التجارة في شبابه. فأقوالهم وأفعالهم حول أهمية التجارة مسجلة في الكتب الإسلامية ومدونة في آذان المسلمين عبر الخطب والبروس في المساجد. فإن ذلك شجع المسلمين الصينيين على القيام بالتجارة منذ بداية انتشار الإسلام في الصين^{٥٢}.

الثالث: أن الأعمال التجارية تأتي دائماً بمنافع اجتماعية كبيرة، ولهذا حظى التجار المسلمون الناجحون بمكانة اجتماعية مرموقة بفضل ثرواتهم الكبيرة، ويحظون باحترام وتقدير واسعين من مختلف فئات المجتمع. وهذا يشجع كل قوة تدفع شباب المسلمين إلى نزول نهر التجارة دون تردد.

وفي ظل الثقافة الإسلامية التقليدية ومع الخبرة التي تكونت عبر ممارسة التجارة لفترة طويلة تنامت مهارة المسلمين التجارية التي توارثوها جيلاً بعد جيل. والآن وفي عصر الإصلاح والانفتاح على الخارج تحررت أفكار الصينيين، وتفتحت حماستهم في إيجاد حياة جديدة لأنفسهم، وبالتالي بزغت موهبة المسلمين في التجارة مرة أخرى على سطح الحياة الاقتصادية المتصاعدة. وبعد أكثر من عشرين عاماً من الاجتهاد حقق المسلمون الصينيون

^{٥٢} - باي، شو يي. د.ت. المقتطفات من متبني تاريخ الإسلام في الصين. بكين: دار النشر الشعبية. ص ٤٦.

منجزات باهرة في مجال الصناعات الغذائية ومعالجة الجلود والفرو وتجارة اللحوم وغيرها.

ومن الملاحظ أن الأعمال التجارية التي يمارسها المسلمون الصينيون تتأثر مباشرة بالثقافة الإسلامية، وتؤثر على حياة المسلمين بشكل عميق، وهي جزء هام من الاقتصاد الإسلامي في الصين، ومن المؤكد أن نشاطات المسلمين في التجارة ستشهد تطورا غير مسبوق مع اكتمال نظام اقتصاد السوق وتعاضمه في الصين.

من المجالات التجارية التي يتفوق المسلمون فيها تربية المواشي وهي نشاط اقتصادي شائع في كل أنحاء الصين، يمارسه أبناء معظم القوميات، ولكن المسلمين لهم فيه تفوق منذ زمن بعيد، وذلك له أسباب، أهمها أن الظروف المناخية والجغرافية للمناطق الشمالية الغربية التي يتركز فيها المسلمون مناسبة لتربية المواشي، وهذا يفسر الدور الهام الذي تلعبه تربية المواشي في الحياة الاقتصادية هناك. وفي أرياف الصين نجد أن المزارعين المسلمين يولون اهتماما أكبر لتربية المواشي مقارنة مع المزارعين غير المسلمين، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى التوجيهات الواردة في القرآن الكريم والكتب الدينية الهامة الأخرى التي تؤكد على أهمية تربية المواشي والعناية بها، فشكلت لديهم تقاليد راسخة في هذا المجال. و يضاف إلى هذا، أن المسلمين يختلفون كثيرا عن أبناء القوميات غير المسلمة في عادات حياتهم اليومية، فأبناء قومية هان مثلا يتناولون رئيسيا اللحم والدقيق، واللحوم بالنسبة لهم طعاما ثانويا، على عكس المسلمين الذين يعتبرون لحم الغنم والبقر غذاء رئيسيا لهم، فيستهلكون كميات كبيرة من اللحوم، ومن أجل سد حاجاتهم اليومية لا بد لهم أن يولوا اهتماما أكبر لأعمال تربية المواشي. فضلا عن ذلك يعتمد الرعاة المسلمون على قطعان الحيوانات كمصدر رزق أساسي لهم. لقد استفاد المسلمون من تفوقهم في تربية المواشي في السنوات الأخيرة، وأقاموا سلسلة من الصناعات التي تعتمد على الإنتاج الحيواني من الذبح ومعالجة الجلود واللحوم وغيرها من المنتجات الحيوانية الأخرى، ومع نمو الاقتصاد الصيني والتقدم العلمي سيتاح للمسلمين الصينيين فضاء أوسع لتطوير تربية المواشي والصناعات المتعلقة بها.

وهناك مجال آخر يتميز المسلمون فيه بتفوق واضح عن بقية أبناء الصين وهو التجارة الخارجية، حيث إن معظم الدول الإسلامية لديها ثروات طبيعية هائلة، وخاصة في إنتاج واحتياطي النفط، وفي الوقت ذاته تعتمد على السوق العالمية في الحصول على المنتجات الاستهلاكية، وهذا الوضع يتيح فرصا وإمكانيات عظيمة للمسلمين الصينيين لتطوير العلاقات التجارية مع إخوانهم المسلمين في تلك الدول، وأن الأساس المعنوي لهذا التعاون هو وجود أواصر العقيدة والأخوة بين الطرفين مما جعل لهم ميزة لا يتمتع بها غيرهم من الصينيين ويتفوقون بها في التجارة الخارجية.^{٥٣}

ولقد بدأت منذ زمن بعيد التبادلات التجارية والاقتصادية بين الصين ودول آسيا الوسطى والجزيرة العربية، فقد شق التجار الصينيون والعرب والفرس معا طريق الحرير المشهور، وتوافد التجار المسلمون من الدول الإسلامية إلى غربي الصين عن الطريق البري أو إلى جنوبي الصين عن الطريق البحري، فامتوطن بعضهم في الصين، واختلطوا مع المحليين، وهم أسلاف المسلمين الصينيين، لذلك هناك أواصر قرى وصلة رحم قديمة بين المسلمين الصينيين وإخوانهم في الدول الإسلامية، وبالإضافة إلى ذلك، تعزز العقيدة الدينية المشتركة وتقاليد ممارسة التجارة العلاقات التجارية بين الجانبين، وكل هذه العناصر تعطي مسلمي الصين تميزا في التجارة الخارجية مع الدول الإسلامية.

وبالفعل منذ عهد الإصلاح والانفتاح على الخارج استفاد المسلمون في مناطق شمال غربي الصين من روابطهم التقليدية مع التجار في الدول الإسلامية في تنمية التعاون التجاري والاقتصادي، وحققوا نجاحا كبيرا. وقد اهتمت تلك المناطق بإرسال الوفود التجارية إلى الدول الإسلامية لزيادة صادراتها الصناعية والحيوانية إليها، كما عقدت ندوات ومعارض متخصصة لجذب رجال الأعمال من هذه الدول إليها. ومن المؤكد أن المسلمين الصينيين سيقدمون مساهمات كبيرة في زيادة التبادلات التجارية والاقتصادية بين الصين والدول

^{٥٣} - شعب وآخرون. ٢٠٠٩م. المسلمون في الصين عبر التاريخ. قانسو: دار النشر القومية. ص ١٢٥.

الإسلامية مع تعاضل قوتهم الاقتصادية.

هذا والواقع الاقتصادي الصيني الحالي هو أن أبناء قومية هان (Han) يعيشون حياة ميسورة نسبياً، بينما يعاني أبناء مختلف الأقليات القومية من صعوبات أكثر في حياتهم، والسبب هو أن أبناء هان يعيشون عموماً في المناطق الشرقية للبلاد حيث مستوى التطور الاقتصادي أعلى، في حين أن معظم أبناء الأقليات يعيشون في المناطق الغربية أو المناطق النائية، حيث الاقتصاد المتخلف. وعلى الرغم من وجود المسلمين في جميع أنحاء الصين فإن غالبيتهم يقطنون المناطق الغربية، لذلك يبذل المسلمون الصينيون جهودهم في أن يستغلوا استغلالاً كاملاً تفوقهم في تنمية الاقتصاد، وأن يساهموا في تضيق الفجوة بين شرق الصين وغربها من أجل تحقيق الازدهار المشترك لجميع أبناء القوميات الصينية.

المطلب الثالث: الواقع الاجتماعي للمسلمين في الصين

أما الوضع الاجتماعي لمسلمي الصين فنستطيع أن نقول إنهم حافظوا بشكل عام على نمط الحياة الإسلامية من حيث مبادئ العقيدة ومعايير الحلال والحرام إلا أن اختلاطهم مع غير المسلمين في السكنى والمعيشة والعمل وعدم استقلالهم في التحكم في كثير من شؤون الحياة بحكمهم من الأقليات في الدولة غير المسلمة هما أثر سلبي على حياتهم كمسلمين وقد أدى ذلك ذل إلى ضعف ظاهر في تمسكهم بمنهج الحياة الإسلامية، هذا من جهة ومن جهة أخرى بحكم سعة أطراف الصين وانتشار المسلمين في كل أنحائها وكذلك لطول تاريخ دخول الإسلام فيها وكثرة التقلبات التي مر المسلمون بها عبر العصور المختلفة لا نستطيع أن نطلق على الوضع الاجتماعي لمسلمي الصين بحكم واحد أو نصفه بوصف موحد عندما نبين أو نحلل هذا الجانب، فهذا ما وقع فيه كثير من الباحثين في أحوال مسلمي الصين، فنجد بعضهم يعمم الحكم أو الوصف وهو في الحقيقة لم يعبر إلا عن أحوال بعض المسلمين في

مناطق معينة أو بعض أحوالهم في فترات تاريخية معينة.

تحدث الأستاذ محمد مكين عن الأحوال الاجتماعية لمسلمي الصين بشيء من التفصيل في كتابه (نظرة جامعة إلى تاريخ الإسلام في الصين) متناولا الأسرة الإسلامية والزواج والطلاق والوراثة والأوقاف وتشجيع الجنائز وزي المسلمين ونظام المساجد وغيرها، وبالرغم من أنه لم يصرح بأن حديثه يعبر فقط عن الواقع الاجتماعي لمسلمي منطقة يونان التي يعيش فيها إلا أنه في الحقيقة يغطي الأحوال الاجتماعية لمعظم المسلمين في الصين خاصة في المناطق التي يتجمع المسلمون فيها مثل يونان بالجنوب الغربي وقانسو (Gan su) ونيغشيا (ning xia) وتشينهاى (qing hai) وشينغجانغ (xin jiang) بالشمال الغربي في فترة ما قبل ١٣٥٠ هـ وهو يقول: "تمتاز الأسر الإسلامية في الصين عن سائر الأسر بالنزاهة والنظافة فلا يوجد فيها معبد الآباء والأجداد ولا تماثيل ولا صور للأبطال والأولياء الخياليين في الخرافات القومية ولا رائحة التبغ والخمر ولا أقدار الخنازير وغير ذلك مما يوجد في معظم الأمم الكافرة، وأفراد الأسر الإسلامية يتوضأون بالأباريق ويستحمون بالدلو المثقوب القعر المعلق في الأعلى، ويهتم رجالها ونسائها بغسل الجبابة جد الاهتمام، فمن النادر أن يتأخروا عن الغسل حتى العصاة الذين لا يؤدون فريضة الصلاة لا يتأخرون عنه بيوم واحد، لأنهم يعتقدون أن الجنب بعيد عن رحمة الله وعناية الملائكة ملعون عند الحيوانات والجمادات، لذلك نجد في كل حجرة نوم للأسرة الإسلامية حلا للوضوء والغسل، بخلاف غير المسلمين، وينام أفراد الأسرة المسلمة بعد العشاء مباشرة ويستيقظون عند الفجر على خلاف عادة غيرهم، فصحتهم ونشاطهم في غاية الجودة، وتتكف المرأة في البيت مشغولة بالشؤون المنزلية ولا يخرج إلا للضرورة ولا تصافح الأجانب ولا تكلمهم ولا تسلم عليهم ولا أحد من أبناء دينها ولا من وطنها يعاكسها ويغازلها، وبالجملة عادات الصين في المعاملة بين الجنسين أشد احتياطا من عادات الإسلام.^{٥٤}

^{٥٤} - محمد مكين. نظرة جامعة إلى تاريخ الإسلام في الصين. ص ٥٧.

وفي الزواج، يشهد الرجال على عقد الزواج ويخطب الإمام في منزلة العروس ليلة الزفاف خطبة الزواج باللغة العربية، وكان الزواج فيما مضى في يد الوالدين يتصرفان كيف يشاءان، وقد يعقدان الزواج على طفلين أو جنينين، وكان الشاب يتزوج وهو ابن خمسة عشر، ومن بلغ أشده ولم يتزوج يضحك عليه، وقد سنت الحكومة الصينية قانونا من موجهه ألا يصح الزواج إلا إذا كان الشاب ابن عشرين والشابة ثمانية عشر على الأقل وعدل فيما بعد سن الزواج إلى خمسة وعشرين سنة بالنسبة للشاب وعشرين سنة بالنسبة للشابة. ولا يصح أيضا بدون رضاها. ولا تتزوج المسلمة من الكافرة مهما تكن ثروته ورتبته، وقد يتزوج المسلم من الكافرة إذا رغبت في الإسلام وأسلمت.^{٥٥}

أما الأحكام الشرعية في الوراثة فيتوقف العمل بها أو عدم العمل على مستوى الشخص في معرفة دينه ومدى التزامه به وقد سنت الحكومة الصينية منذ سنة ١٩٢٧م قانونا يقتضي المساوات في الوراثة بين الولد والبنت إلا أن العادة عند كثير من المسلمين أن يقسم الرجل أمواله وعقاراته بين أولاده إذا هم أو فقدت الألفة بين أولاده ويبقى لنفسه وزوجته جزءا منها وقد يقفها بوصيته للمسجد أو المؤسسات التعليمية الإسلامية. وأوقاف المسلمين بعضها بوقف الواقفين وبعضها تركه من ليس له وارث، وعلى العرف تركه الميت لولده وإن لم يكن له ولد فلعشيرته وإن لم يكن له عشيرة فللمسجد، والأوقاف يتعهد بها بعض الأعيان الذين ينتخبهم جماعة المسلمين كما يتعهدون عقارات المسجد التي اشترت بالصدقات والتبرعات وينفق من ريعها على الموظفين في المساجد والمدارس الإسلامية المرافقة لها.

وبسبب الجهل بالدين وضعف التعليم الإسلامي وقلة الدعاة يلاحظ في كثير من جوانب الحياة الدينية لمسلمي الصين مظاهر البدع والمخالفات الشرعية، من ذلك إذا احتضر الرجل دعا أهله الإمام ليقرا له التوبة والاستغفار باللغة العربية طنا منهم أن التوبة والاستغفار بلغة القرآن أكثر قبولا عند الله منها بلغة الوطن، واحتضر لا يقدر على

^{٥٥} - محمد مكين. نظرة جامعة إلى تاريخ الإسلام في الصين. ص ٥٨.

الاستغفار باللغة العربية فيتوب بقلبه ويستغفر بلغته، وبعد غسل الميت يقرأ الإمام سورة طه خارج البيت ويلف الميت في ثلاثة أثواب من القطن بيضاء ويؤتى بالميت إلى ساحة المسجد ثم يقام له دورة الإسقاط بحيث يحاسب للميت بوصيته أو يتبرع وليه ما يجب عليه من كفارة الصيام والصلاة وغيرها ثم يدور ولي الميت أو قريبه بمبلغ يتصدق به على كل واحد واقف في دائرة تشبه الحلقة وإذا تقبله تصدق به على ولي الميت وإذا تقبله منه تصدق به على الواقف الثاني وهكذا إلى الواقف الأخير، إن كفى، توقف، وإلا فيدور مرة أخرى، وهناك من يدور بالقرآن الكريم ظنا منهم أن أثن من كل الثمن فإن الدور به أفضل من الدور بدراهم معدودة، ويحمل الجنازة أقارب الميت وأحابه وجيرانه إلى مقبرة المسلمين و يقرأ القرآن في المقبرة ثلاثون من طلاب العلم في المساجد ويقرأ كل واحد جزءا و بعد دفن الميت ينصب بعضهم على القبر نصبا حجرياً ينقر عليه اسم صاحبه ومولده ومماته وسيرته المختصرة إذا كانت له مائة، أو يقيم أهل الميت المآتم في اليوم السابع والأربعين والمائة والسنة الكاملة، يتم فيها قراءة القرآن والإطعام والتصدق ونحوها مختلطة بالعبادات الإسلامية بالعادات الصينية.

أما اللغة، فيتكلم المسلمون من القومية هوي الذين يمثلون أكثرية المسلمين في الصين اللغة الصينية ما عدا المسلمون في منطقة تركستان الصينية فلم لغتهم الخاصة غير الصينية إما الويغورية أو الأوزبكية وغيرها وسكان الصين الأصلية يتكلمون باللغة الصينية كلهم وتختلف لهجاتهم اختلافا بسيطا ويمكنهم أن يفهموا بالسهولة.

ولا يختلف زي المسلمين في معظم المقاطعات عن زي بقية الصينيين، إلا أن معظمهم يلبسون القلنسوة البيضاء خاصة في شمال غربي الصين مما جعلتهم متميزين عن غير المسلمين، ويلبسون العمام البيضاء ذوات الذنب عند الصلاة، هذا ويميز المسلمون غالبا من غيرهم بنظافة ملابسهم وقوة أجسامهم وكثافة لحاهم.

المبحث الثالث

ترجمة معاني القرآن الكريم ودورها في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام

المطلب الأول: ترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغات العالم

مما لا يتنازع فيه مسلمان أن التبليغ وسيلة من الوسائل المهمة للدعوة إلى الله سبحانه، وقد أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ وَحَاثَتْهُ﴾^{٥٦} وإذا كانت رسالة الإسلام رسالة علمية، وكانت حكمة الله البالغة اقتضت أن يجعل لغات الناس التي يتفاهمون بها ويتواصلون كثيرة متعددة، فقد كانت الترجمة وسيلة مهمة في إيصال رسالة الإسلام إلى البشر جميعا.

ولا يخفى أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، وهذا كانت اللغة العربية وعاء هذا الدين، إلا أن هناك كثيرا من الشعوب والحضارات التي دخلت دين الإسلام أو دخل الإسلام إليها لا ينطق أهلها العربية، ومن هنا كانت الصعوبة في فهم رسالة هذا الدين وتطبيقه بشكل سليم، وهكذا كان تعدد اللغات بين شعوب العالم من المشكلات التي تواجه الدعاة والمبلغين، وتقف عقبة في طريقهم.

منذ عدة قرون كانت قضية ترجمة معاني القرآن الكريم من اللغة العربية إلى اللغات الأخرى واحدة من أهم القضايا التي طغت على الساحة الإسلامية، وانقسم الناس في ذلك إلى قسمين لا ثالث لهما، قسم يبيح الترجمة ويرى ضرورتها وأهميتها في خدمة الدعوة إلى دين الله الخالد، ولاسيما مع دخول أمم كثيرة من غير العرب في الدين الإسلامي وانتشار الإسلام في شتى بقاع المعمورة، وقسم آخر يرى عدم جواز الترجمة البتة، وأن كل من أراد

^{٥٦} - القرآن. المائدة ٥ : ٦٧.

فهم معاني القرآن الكريم عليه أن يتعلم اللغة العربية ويتقنها. ولكن مع مرور الزمن وتوسع رقعة العالم الإسلامي، لم يعد الإقدام على مثل هذا العمل بدعاً من القول، ولم تعد الآراء المخالفة للرأي الأول مجدية؛ لأن الواقع قد فرض نفسه، وأصبح أمر الجواز محسوماً لا جدال فيه البتة.

من هنا فلا غرو إن قلنا: إن معظم لغات العالم المهمة اليوم -ولله الحمد والمنة- قد ترجمت إليها معاني القرآن الكريم. بل أصبحت المكتبات تعج وتموج بالعديد من الترجمات المختلفة التي قام بها أشخاص لهم ميول وتوجهات مختلفة بحسب أهوائهم واجتهاداتهم.

من كل ما سبق نرى أن مجال ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأخرى أصبح الآن من أهم مجالات الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، ومن أخصب طرق نشر الإسلام إلى أرجاء المعمورة كافة. ولا كاد يجزم بالمدى الذي تردد أن الإقدام على العمل في مثل هذا المجال من أفضل السبل ومن أعظم الخدمات التي يمكن أن يقدمها المرء خدمة لكتاب الله سبحانه وتعالى متى ما تحلى ذلك بالدقة والأمانة وإخلاص النية لله سبحانه وتعالى.

بعث الله تعالى نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة، فمن الطبيعي أن يبلغ الوحي الإلهي المتجسد بالقرآن الكريم جميع الناس في العالم. ولما كانت غالبية البشر لا يعرفون العربية، فلا بد من ترجمة معانيه إلى لغاتهم كي يفهموا النص القرآني ويعرفوا أحكام الإسلام وعقائده وقصصه وحكمه وأمثاله وتعاليمه. وإذا كانت هذه القضية تثار بشكل عادي، فإنها في الأمس كانت موضع خلاف وصراع وجدال وسجال بين العلماء. ففي عام ١٩٢٥م شهدت مصر ضجة كبيرة بعد أن أوصت مشيخة الأزهر مصلحة الجمارك بإحراق ما ورد إليها من ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الإنكليزية. إذ أيد بعض الناس قرار الأزهر، وعارضه آخرون. وقد نشر الشيخ محمد شاکر وكيل الأزهر سابقاً كتاباً بعنوان (القول الفصل في ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأعجمية)، تضمن الكتيب آراء وفتاوى الشيخ بحرمة ترجمة القرآن حيث يقول (فالحق الذي لا محيص عنه أنه لا يحل الإقدام على ترجمة

القرآن إلى غير اللغة العربية، كما لا يحل الإقدام على تبديل أية كلمة من كلماته الشريفة بما يرادفها في العربية). ثم يلخص الشيخ رأيه بترجمة القرآن فيقول: (لم يبق شك بعد الذي أسلفناه أن فقهاء الإسلام وأئمة الدين المجتهدين قد أجمعوا:

- ١- على تحريم قراءة القرآن بغير اللغة العربية وبغير النظم العربي المبين الذي نزل به الروح الأمين على قلب محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.
- ٢- وعلى تحريم ترجمة القرآن الكريم إلى أية لغة أعجمية.
- ٣- وعلى تحريم كتابة المصاحف بهذه التراجم.

٤- وعلى تحريم تداول هذه التراجم بين من يحسن العربية ومن لا يحسنها من عامة المسلمين في أقطار المعمورة^{٥٧}

ولعل الترجمة التي يرى الشيخ أنها محومة هي ترجمة حرفية بالمثل. وهي ترجمة غير ممكنة إطلاقاً لأنه لا يمكن ترجمة الآيات والكلمات القرآنية لتعطي نفس المعاني والإحساس والبلاغة في اللغات الأخرى. أما الترجمة التفسيرية فهي جائزة قطعاً لأنها تترجم معنى اللفظ القرآني حسب أقرب وأفضل الألفاظ المقابلة لها في تلك اللغة. فهي ليست ترجمة للفظ القرآني بل ترجمة لمعنى اللفظ. ولذلك صارت ترجمة القرآن يطلق عليها ترجمة معاني القرآن كي ينصرف الذهن إلى الترجمة التفسيرية وليس ترجمة اللفظ نفسه^{٥٨}

وقد عارض الشيخ بخيت المفتي الأسبق رأي الشيخ محمد شاكر والذي أفتى بوجوب ترجمة القرآن حيث كتب يقول: "إن ترجمة القرآن للتعليم والتفهيم، والإنذار والتبليغ، قد أجازها الحنفية والحنابلة والشافعي. ثم يضيف معارضاً قرار المشيخة بإحراق النسخ القادمة من الخارج حيث يقول: "ولا تجوز مصادرة مصحف كتب فيه القرآن بالعربية وترجمته معه إلا بعد التحقق من خلل الترجمة وتغييرها لمعنى القرآن." ثم يستنتج قائلاً:

^{٥٧} - منها، أحمد إبراهيم. ١٩٧٨م. دراسة في ترجمة القرآن الكريم. القاهرة: دار مطبوعات الشعب. ص ١٨.

^{٥٨} - عبد الرزاق، صلاح. ترجمة القرآن الكريم من التحريم إلى الجواز. مجلة البحوث الإسلامية. العدد ٤٦. ص ٥٤.

"والذي أراه أن الترجمة على الوجه الذي بين في كتب الحنفية أصبحت الآن واجباً على الكفاية حفظاً للقرآن من تحريف معناه وترجمته على غير الصحيح وبغير المراد منه، وبحفظ القرآن يحفظ أساس الدين المتين."^{٥٩}

وأثيرت قضية ترجمة القرآن في تركيا عام ١٩٣٢م عندما قرر مصطفى كمال أتاتورك ترجمة القرآن إلى اللغة التركية، وأمر الناس بالصلاة بالقرآن بترجمته التركية. وقد رافق تلك الخطوة استياء واسع في العالم الإسلامي لأنه جاء بعد إلغاء الخلافة عام ١٩٢٤م وإلغاء الحرف العربي واستخدام الحرف اللاتيني لكتابة اللغة التركية. وقد انقسم المسلمون إلى مؤيد ومعارض. فالمعارضون رأوا في ذلك الحدث حرماناً للأجيال التركية المسلمة من التواصل مع النص العربي للقرآن، مما يفقدهم الصلة بالمراجع والكتب العربية وخاصة كتب الفقه والتفسير والحديث والتاريخ. كما أن تضارب هذه الترجمات مع بعضها البعض سيفقد الثقة بالنص، وتضيع بذلك المفاهيم والأحكام. ولهذا هاجم هذا الفريق ترجمة القرآن لأنهم اعتبروها حلقة من الحملات على التراث الإسلامي. أما الفريق المؤيد للترجمة فقد اعتبرها وسيلة جيدة لفهم الدين وتعاليمه في شعب لا يعرف اللغة العربية ولا يفهم كتاب الله إذا تلي بها.

ودارت بين الفريقين مساجلات حادة في الصحف والمجلات، تبادلوا فيها شتى الاتهامات. فقد عارض الشيخ مصطفى صبري، وهو أخصر شيخ للإسلام في الدولة العثمانية، ترجمة القرآن، ونشر كتاباً بعنوان (مسألة ترجمة القرآن) تضمن رأياً مشابهاً لرأي الشيخ شاكر المذكور آنفاً.

أما الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر السابق فقد كتب مقالاً بعنوان (نقل معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية) صرح فيه بإمكانية نقل معاني القرآن إلى لغات أخرى مستنداً إلى رأي أبي إسحاق الشاطبي في كتاب "الموافقات" الذي قال بأن ترجمة القرآن أي النظر إلى معانيه الأصلية جائزة. ثم استنتج الشيخ الخضر قائلاً: (وإذا كان نقل المعاني الأصلية قد

^{٥٩} - المرجع نفسه. ص ٢٥.

يقع صحيحاً وكان في استطاعة من يجيد لغة أجنبية أن ينقل هذه المعاني من اللغة العربية إلى اللغة التي أجاد معرفتها، لم يبق سوى النظر في تفصيل حكم هذا النقل وبيان حال المنع منه أو الإذن فيه). وكغيره من العلماء المسلمين يرد الشيخ قراءة ترجمة القرآن في الصلاة.^{٦٠}

وقد أثرت القضية في مصر مرة ثالثة عام ١٩٣٦م بعد تولي الشيخ مصطفى المراغي مشيخة الأزهر للمرة الثانية. فقد رأى أن يقوم الأزهر بترجمة معاني القرآن إلى اللغة الإنكليزية. وقد عارضه كل من الشيخ محمد سليمان نائب المحكمة الشرعية العليا بمصر آنذاك والشيخ محمد مصطفى الشاطر قاضي المحكمة الشرعية. وقد كتب كل واحد منهما رده في كتاب مستقل، الأول بعنوان (حدث الأحداث في الإسلام: الإقدام على ترجمة القرآن)، والثاني بعنوان (القول السديد في حكم القرآن المجيد).

وصل الخلاف أشده بين المؤيدين والمعارضين لترجمة القرآن، فقام جماعة من الفضلاء بتقديم استفتاء إلى كبار العلماء في مصر من مفتين ومشايخ وأساتذة وأعضاء جماعة كبار العلماء، ومن المذهبيين الحنفى والحنبلية، جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

ما قول السادة حضرات أصحاب الفضيلة العلماء في السؤال الآتي بعد ملاحظة المقدمات الآتية:

١- لا شبهة في أن القرآن الكريم اسم للنظم العربي الذي نزل على سيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله.

٢- ولا شبهة أيضاً في أنه إذا عبر عن معاني القرآن الكريم بعد فهمها من النص العربي بأية لغة من اللغات لا تسمى هذه المعاني ولا العبارات التي تؤدي هذه المعاني قرآناً.

٣- ومما لا محل للخلاف فيه أيضاً أن الترجمة اللفظية بمعنى نقل المعاني مع خصائص النظم

^{٦٠}- المرجع نفسه. ص ٥٦.

العربي المعجز مستحيلة.

٤- وضع الناس تراجم للقرآن الكريم بلغات مختلفة اشتملت على أخطاء كثيرة ، واعتمد على هذه التراجم بعض المسلمين الذين لا يعرفون العربية وبعض العلماء من غير المسلمين ممن يريد الوقوف على معاني القرآن الكريم.

٤- وقد دعا هذا التفكير في نقل معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأخرى على الوجه الآتي:

يراد أولاً فهم معاني القرآن الكريم بوساطة رجال من خيرة علماء الأزهر الشريف بعد الرجوع لآراء أئمة المفسرين وصوغ هذه المعاني بعبارات دقيقة محدودة ثم نقل المعاني التي فهمها العلماء إلى اللغات الأخرى بوساطة رجال موثوق بأمانتهم واقتدارهم في تلك اللغات بحيث يكون ما يفهم في تلك اللغات من المعاني هو ما تؤديه العبارات العربية التي يضعها العلماء.

هذا مع العلم بأنه سيوضع تعريف شامل يتضمن أن الترجمة ليست قرآناً، وليس لها خصائص القرآن، وليست هي ترجمة كل المعاني التي فهمها العلماء، وأنه ستوضع الترجمة وحدها بجوار النص العربي للقرآن الكريم.

وورد الفتوى على النحو التالي:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد فقد اطلعنا على جميع ما ذكر بالاستفتاء المدون بباطن هذا. ونفيد بأن الإقدام على الترجمة على الوجه المذكور تفصيلاً في السؤال جائز شرعاً. والله سبحانه وتعالى أعلم.

هذا وقد أيد الشيخ محمد مصطفى المراغي رئيس جماعة كبار العلماء آنذاك هذه الفتوى الأمر الذي شجع الحكومة على المضي قدماً في المشروع. فقد اجتمع مجلس الوزراء المصري بتاريخ ١٦/٤/١٩٣٦م وأقر إصدار ترجمة رسمية للقرآن الكريم تشرف عليها مشيخة الجامع

الأزهر وبمساعدة وزارة المعارف.^{٦١}

بعد أن بدأ الجامع الأزهر في الثلاثينيات من القرن العشرين، وهو واحد من أعرق الجامعات الإسلامية، بالسماح والإشراف على صدور ترجمات مختلفة للقرآن الكريم، لم تعد القضية مثار نقاش بين المسلمين في الوقت الحاضر، لكن ما زال البعض يطرح مثل هذا التساؤل خاصة في الدول الغربية حيث يعيش أكثر من ثلاثين مليون مسلم، كما اعتنق الإسلام أكثر من مائة ألف غربي.

يرى الشيخ عطية صقر^{٦٢} أن الترجمة التي اتفق عليها العلماء لا تسمى قرآناً له خصائصه ومزاياه وأحكامه الشرعية، و أن الترجمة ليست كلام الله المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم، بل هي كلام بشر، ولأن لغة الترجمة ليست هي العربية التي هي داخلية في كيان القرآن الكريم، والترجمة ليست معجزة، لأن مفهوم المعجزة يُحمل على عدم قدرة أحد غير الله على صنعها، فما صنعه البشر -غير الله- يفقد معنى الإعجاز. وإذا كانت الترجمة لا تسمى قرآناً ولا تستلزم أحكامه من مثل التعبد بتلاوته، وعدم قراءته مع الجنابة، وصحة القسم به. فهي لا تنفي عن القرآن أبداً. ويتساءل الشيخ صقر: إذا كانت ترجمة القرآن بهذه الخطورة فكيف نبلغه للناس وقد أمر الله رسوله بتبليغه فقال ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾^{٦٣}، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (بَلِّغُوا عني ولو آية)^{٦٤} وقال: (لِيَبْلُغَ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ)^{٦٥}، فكيف نبلغه إلى غير العرب الذين لا يعرفون اللغة التي نزل بها القرآن وهي اللغة العربية؟. ثم يجيب

^{٦١} - المرجع نفسه. ص ٦٨.

^{٦٢} - وهو من العلماء المعاصرين.

^{٦٣} - القرآن. المائدة ٥: ٦٧.

^{٦٤} - صحيح، أخرجه البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو. البخاري. ١٤٢٢هـ. صحيح البخاري. دمشق: دار طوق النجاة. ط ١.

ط ١. كتاب أحاديث الأنبياء. باب ما ذكر عن بني إسرائيل. ج ٤: ص ١٧٠. # ٣٤٦١.

^{٦٥} - صحيح، أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي بكر. البخاري. ١٤٢٢هـ. صحيح البخاري. دمشق: دار طوق النجاة. ط ١.

كتاب العلم. باب: لِيَبْلُغَ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ. ج ١: ص ٣٣. # ١٠٥.

الشيخ قائلاً: إن الله سبحانه وتعالى قال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾^{٦٦}، فالقرآن نزل بلغة العرب، وهم بدورهم يبلغونه للناس بألسنتهم المختلفة. ولا يتحتم أن يكون تبليغه بترجمته، بل يمكن تبليغ فحواه ومعناه بهذه الألسنة واللغات، حتى إذا دخلوا في الدين وأرادوا التفقه فيه تعلموا لغة القرآن وقرأوه بها). ثم يضيف الشيخ صقر (من الواجب أن يقوم المسلمون بترجمة معاني القرآن الكريم تبليغاً للرسالة، وتصحيحاً للأخطاء التي وقعت في التراجم التي قام بها أجناب عن الإسلام، أو من لا يتقنون اللغة العربية ولا يعرفون أساليبها البلاغية).^{٦٧}

يقول العلامة الحنوي المغربي رحمه الله تعالى في كتابه (حكم ترجمة القرآن الكريم): "زعم أن الإسلام ألزم الناس العربية وقلمها، ونبد ألسنتهم ومنعهم من ترجمة القرآن العظيم، وهذه الشنعة تكفل بردها والتشجيع بها كتابي (جواز ترجمة القرآن)، فقد برهن فيه على أن الدين لا يلزم الأمم التي دخلت في الإسلام التكلم بالعربية، بدليل بقائها إلى الآن تتكلم بألسنها، وما منع ترجمة القرآن أصلاً ولا ورد المنع في كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس".^{٦٨} وقال أيضاً: "إن ترجمته من الأمور المرددة فيها، بل يصح لنا أن نقول: إنها من فروض الكفاية التي يجب على الأمة القيام بها، فإذا قام بها البعض سقط عن الباقي، وإن لم يقم بها أحد أثم الكل".^{٦٩} برهان ذلك: إنه تبليغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال: "فليبلغ الشاهد الغائب".^{٧٠} وقال "بلغوا عني ولو آية".^{٧١} وقد أوجب الله على رسوله التبليغ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾^{٧٢}،

^{٦٦} - القرآن. إبراهيم ١٤: ٤.

^{٦٧} - عبد الرزاق، صلاح. ترجمة القرآن الكريم من التحريم إلى الجواز. ص ٦٩.

^{٦٨} - عبد النبي ذاكر. ١٩٩٨م. قضايا ترجمة القرآن. سلسلة شراع. طنجة. ص ٤٩-٥٠.

^{٦٩} - فرض الكفاية: هو كل مهم يراد حصوله، ولا يقصد به عين من يتولاه. انظر "البحر المحيط" للإمام الزركشي ٢٤٢/١

^{٧٠} - تم تخريجها في ص ٤٨.

^{٧١} - تم تخريجها في ص ٤٨.

^{٧٢} - القرآن. المائدة ٥: ٦٧.

فهو بلغ للعرب بلسانهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾^{٧٣} ويجب على العرب أن ينوبوا عنه، ويبلغوا لغيرهم من الأمم، فلذا قال لهم: (بلغوا عني ولو آية) ولا يمكن التليغ لجميع الأمم إلا بالترجمة إلى لسانهم^{٧٤}.

من كل ما سبق نرى أن مجال ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأخرى أصبح الآن من أهم مجالات الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، ومن أخصب طرق نشر الإسلام إلى أرجاء المعمورة كافة. ويكاد يجزم بلا أدنى تردد أن الإقدام على العمل في مثل هذا المجال من أفضل السبل ومن أعظم الخدمات التي يمكن أن يقدمها المرء خدمة لكتاب الله سبحانه وتعالى متى ما تحلى ذلك بالدقة والأمانة وإخلاص النية لله سبحانه وتعالى.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، يتحدث سكان القارة الإفريقية بما يزيد عن ٤٠٠ لغة، وبعض دول تلك القارة لديها ما يقرب من مائة لغة، كنيجيريا، وكينيا. ويقدر علماء اللغات أن عدد لغات العالم يصل إلى ما بين ٢٥٠٠-٥٠٠٠ لغة موزعة على القارات الخمس، وتقول الإحصائيات في هذا الشأن: إن حوالي ثلثي سكان العالم يتحدثون ٢٧ لغة فقط، بينما يتحدث الثلث الآخر بقية اللغات... فإذا تأملنا حجم هذه الأرقام أدركنا حجم المشكلة التي تواجه الدعوة إلى هذا الدين، وأدركنا بالتالي أهمية الترجمة، ودرجة الأهمية التي ينبغي أن تعطى لها.^{٧٥}

"وفي خضم هذه المشكلة وحاجة الشعوب الإسلامية للتعرف على دينها وقراءة كتاب ربها، ظهرت جهود بشرية عبر التاريخ في ترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغات شتى، وأن ما ذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى^{٧٦} أن رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعوا لغات

^{٧٣} - القرآن. إبراهيم ١٤: ٤.

^{٧٤} - عبد النبي ذاكر. تفضايا ترجمة القرآن. ص ٥٠-٥١.

^{٧٥} - العمري، وليد بن بليش. ترجمة معاني القرآن الكريم بين الواقع والمأمول مقارنة كمية ونوعية بين ترجمات معاني القرآن الكريم وترجمات الإنجيل. مجلة الدراسات القرآنية. العدد ١٤. ص ٢٣.

^{٧٦} - الزهري، محمد بن سعد بن منيع. ١٩٩٠م. الطبقات الكبرى، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية.

القوم الذين أرسلوا إليهم^{٧٧}، وبعض الرسائل التي بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم احتوت آيات من القرآن الكريم وبخاصة تلك التي بعثت إلى أهل الكتاب مثل النجاشي ملك الحبشة التي ورد فيها الآيات التالية: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^{٧٨}، و﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾^{٧٩} ٨٠. وورد أن عمرو بن أمية رضي الله عنه، وهو الرسول إلى النجاشي، قام بترجمة رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اللغة التي يفهمها النجاشي، وفي رسالته صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس وردت الآية: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾^{٨١} وهذا يعد ضرباً من الترجمة إلا أنها ترجمة لبعض آيات القرآن الكريم تخدم الغرض الخطابي ولا تتعدى ذلك إلى ترجمة لسورة كاملة من سوره، وذكر السرخسي في كتابه الكبير في الفقه الحنفي الموسوم بـ "المبسوط" أن الفرس كتبوا إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية فكانوا يقرؤون ذلك في الصلاة حتى لانت ألسنتهم للعربية^{٨٢}، وفي كتاب "النهاية حاشية الهداية"^{٨٣} تفاصيل أكثر حيث يذكر: "كتبوا إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم / بنام يزدان بخشاوند.... وبنام كشي عرضه على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم

ط ١٠٨/١. ٢٥٨.

^{٧٧} - روى الإمام البخاري في صحيحه عن خارجه بن زيد بن ثابت، عن زيد بن ثابت أن النبي أمره أن يتعلم كتاب (أي لغة) اليهود "حتى

كتب للنبي كتبه، وأقرأته كتبهم إذا كتبوا إليه". فتح الباري ١٣/١٩٧ رقم ٧١٩٥.

^{٧٨} - القرآن. الحشر ٥٩: ٢٣.

^{٧٩} - القرآن. النساء ٤: ١٧١.

^{٨٠} - محمد حميد الله. ١٩٧٩م. مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة. بيروت: دار الإرشاد. ص ٧٤-٧٧.

^{٨١} - القرآن. آل عمران ٣: ٦٤.

^{٨٢} - السرخسي، أبو بكر محمد بن أحمد. ١٩٩٣م. المبسوط. بيروت: دار المعرفة. د. ط. كتاب الصلاة. ٣٧/١.

^{٨٣} - تاج الشريعة. ١٩١٥م. كتاب النهاية حاشية الهداية. طبع دهي. ٨٦/١. حاشية ١.

بعثه إليهم، ولم ينكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم، كأهم طلبوا ترجمة سورة الفاتحة لقوله عليه السلام "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب".^{٨٤}

ويذكر ألفونس مينا (Alphonse Mingana) في مقدمة كتابه "ترجمة سريانية قديمة للقرآن" أن ديونيسيوس بارصليي، المتوفى عام ١١٧١م، يؤكد أنهم قاموا بترجمة القرآن إلى السريانية، إبان ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي في خلافة عبد الملك بن مروان، وتوجد في مكتبة جون رايلاند بجامعة مانشستر بالجلترا مخطوطة سريانية نشرها ألفونس مينا في كتابه المذكور، وفيه ترجمات لمقتطفات من القرآن الكريم مثل سورة الفاتحة، وآيات أخرى، مكتوبة بنصها العربي وترجمة إلى السريانية مع تعليقات وطعون نصرانية.^{٨٥}

ويذكر الأستاذ مونتيه في كتابه L'Islam (الإسلام) أن الفيلسوف اليوناني نقيطاس من القرن التاسع الميلادي الموافق لقرن الهجري الثالث نقل القرآن إلى اليونانية، فقسم منه ترجمة وقسم خلاصة، وزاد عليه ودوداً وطعوناً. وذكر برزك بن شهرار في كتابه "عجائب الهند والصين" (ص ٢-٣) أنهم ترجموا القرآن في شمال الهند لصالح بعض الملوك المجاورين الذي كان قد اشتاق إلى الإسلام.

وفي القرن الرابع الهجري أمر الملك منصور بن نوح الساماني جماعة من كبار علماء تركستان عام ٣٤٥هـ أن يترجموا جميع القرآن الكريم إلى الفارسية والتركية الشرقية والتركية الغربية، مع زيادة ترجمة خلاصة تفسير الطبري.

وظهرت أوائل ترجمات معاني القرآن الكريم إلى لغات الشعوب الإسلامية، عندما أحس كثير من الشعوب بعد دخول الإسلام بالحاجة إلى تعلم أصول الدين، لذا عملوا إلى تفسير

^{٨٤} - صحيح، أخرجه البخاري في صحيحه من حديث عبادة بن الصامت. البخاري. ١٤٢٢هـ. صحيح البخاري. دمشق: دار طوق النجاة.

ط ١. كتاب الأذان. باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها. ج ١: ص ١٥١. # ٧٥٦.

^{٨٥} - العمري، وليد بن بليهش. ترجمة معاني القرآن الكريم بين الواقع والمأمول مقارنة كمية ونوعية بين ترجمات معاني القرآن الكريم وترجمات الإنجيل. مجلة الدراسات القرآنية. العدد ٤٧. ص ٢٨.

^{٨٦} - المرجع نفسه. والعدد. ص ٣١.

معاني القرآن الكريم إلى لغاتهم ليتفقهوا في الدين. والترجمات الأولى إلى لغات الشعوب الإسلامية هي إلى الفارسية والتركية والأردية.

ولكن الأمر الأكثر إثارة للاهتمام في تاريخ ترجمة معاني القرآن الكريم ليس مدى تبكيها أو تأخرها في الظهور ولكن الأغراض التي استخدمت الترجمة لخدمتها، وهناك محطات مؤثرة تجدر الإشارة إليها.

أهم هذه المحطات هي ترجمة دير كلوني إلى اللاتينية التي ظهرت في القرن السادس عشر الميلادي وتأثر بها كثيراً دي رير في ترجمته الفرنسية لمعاني القرآن الكريم ومن ثم أثرت ترجمته في ترجمات معاني القرآن الكريم الأولى إلى الإيطالية، والهولندية، والألمانية، والفرنسية، والروسية. ثم ظهرت في القرن الثامن عشر الميلادي ترجمة لودوفيكو مراتشي التي تأثر بها كثيراً جورج سيل في ترجمته الإنجليزية لمعاني القرآن الكريم، وأثرت ترجمته في ترجمات معاني القرآن الكريم الأولى إلى عدد من اللغات وهي: الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والروسية، والهولندية، والإيطالية، والألبانية، والبلغارية، والجرية، والتشيكية^{٨٧}.

والملاحظ الأبرز لهذه الترجمات هي أنها ترجمات نقدية هجومية عنونت في أغلبها بـ "قرآن محمد"، وكان لها أثر كبير في تعميق الفكر العدائي في أوروبا ضد الإسلام مما أدى بشكل أو بآخر إلى حروب الفرنجة ضد بلاد المسلمين.

تشير بعض الدلائل التاريخية إلى أن ترجمات معاني القرآن الكريم من قبل المسلمين لغرض فهم الدين وتفهمه لمن لا يعرفون العربية بدأت بالترجمة الفارسية التي تمت عام ٣٤٥هـ، أي في منتصف القرن الرابع الهجري، في عهد الملك الساماني أبي صالح منصور بن نوح بن نصر وهي ترجمة مختصرة لتفسير الطبري، وهذا يدل على تخرج المسلمين من قبل من الإقدام على هذا العمل، ونعلم من خلال السياق التاريخي أن اللغة العربية كانت هي اللغة الرسمية للبلدان التي افتتحها المسلمون وكان يتعين على كل من أراد أن يتعلم أمور الدين

^{٨٧} - المرجع نفسه والعدد. ص ٢٤.

وينخرط في جادة المجتمع أن يتعلم اللغة العربية، فكل المثقفين كانوا يتقنون اللغة العربية ولكن مع ضعف الخلافة انفردت كل دويلة إسلامية بذاتها ولم يعد للغة العربية مكانتها الأولى في الدول التي يتكون غالبية أهلها من غير العرب، لذا نجد أنهم اعتنوا بهذه الترجمة عناية كبيرة، وأحضر النص العربي لتفسير الطبري من بغداد الملك منصور بن نوح وهو في أربعين مجلدًا، وما وجدوا صعوبة في قراءته وفهمه رأى ترجمته إلى الفارسية، وجمع لذلك نفرًا من علماء بلاد ما وراء النهر واستفتاهم في جواز ترجمته فأفتوه بجوازها ليستفيد منها الذين لا يعرفون العربية واعلموا في فتواهم على قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾^{٨٨}، ومع هذا فقد عقدت لجنة للقيام بهذه الترجمة، وجعلوا الأصل هو المهيمن عليها تمامًا إذ كانت مغرقة في الحرفية ولم يترجم إلا ما يعادل عشر التفسير، بل وحتى الترجمة التركية التي قيل إنها كانت مزامنة لهذه الترجمة حذت حذوها^{٨٩}.

ويمكن القول بأن هناك ثلاثة أنماط من الترجمات لمعاني القرآن الكريم:

النمط الأول: الترجمات الشرقية، ونقصد به ترجمات القرآن إلى لغات الأمم الشرقية كالفارسية والتركية والأوردية والجاوية والبنغالية، وأغلب ترجمات هذا النمط كانت تتم على أيدي عناصر مسلمة، ولذلك كانت تتوفر فيها النظرة القدسية للقرآن، ومن هذا النمط ما ذكره الجاحظ عن موسى بن سيّار الأسواري (المتوفى سنة ٢٥٥هـ) أنه كان يدرّس القرآن ويشرحه بالفارسية، ومن هذا النمط أيضًا ما ذكر عن ترجمات القرآن على أيدي علماء ما وراء النهر في سنة ٣٤٥هـ للملك منصور بن نوح الساماني، ونالت الترجمات الفارسية والجاوية، وهي أكبر اللغات الملايوية وأكثرها انتشارًا، وقد ترجم إليها القرآن مع تفسير البيضاوي.

^{٨٨} - القرآن. إبراهيم ١٤: ٤.

^{٨٩} - العمري، وليد بن بليهش. ترجمة معاني القرآن الكريم بين الواقع والمأمول مقارنة كمية ونوعية بين ترجمات معاني القرآن الكريم وترجمات الإنجيل. مجلة الدراسات القرآنية. العدد ٤٧. ص ٣٥.

كما ترجمت إلى اللغة الأوردية وهي اللغة التي تتكلمها شعوب باكستان والهند .
ترجمات عدّة أشهرها ترجمة (الشيخ عبد القادر بن الشاه ولي الله)، وترجمة (الدكتور عماد الدين أمرتسار) طبعت في مدينة (الله آباد) وهي أول طبعة بحروف أوردية إفرنجية، وهناك طبعة أخرى ظهرت سنة ١٣١٥هـ فيها الأصل العربي وترجمة بالفارسية والأوردية، وتأتي الأوردية في الهند بعد اللغة البنغالية، وقد ترجم إليها الراهب (وليم جلودسك) القرآن سنة ١٩٠٨م.

أمّا في تركيا ومعظم شعوبها من المسلمين، فالمعروف هو أن السلطان عبد الحميد كان يمنع منعاً باتاً ترجمة القرآن إلى اللغة التركية.

ويلحق بالنمط الشرقي ما وضعه كل من فارجنيل ويوفات من شرح للقرآن الكريم باللغة الصينية، ونشره في مجلة تسمى مجلة العالم الإسلامي.

فإذا أضفنا إلى كل ما سبق ترجمة سريانية تنسب إلى بار صليبي المعاصر للحجاج الثقافي وأخرى عبرية كما ذكرته دائرة المعارف اليهودية، اكتملت لدينا صورة النمط الشرقي لترجمات القرآن.

النمط الثاني: وهو الترجمات إلى اللغات الأوروبية، والملاحظ أن القرآن جذب بطريقته المثلى في عرض جوانب من عقيدته وشريعته وبألملوبة المعجز المتفرد في صياغة أفكاره ومبادئه، اهتمام كثير من الأوروبيين، وخاصة رجال الدين من القساوسة والرهبان، فدعوا إلى ترجمته أولاً قبل دراسته، ومنافحته بعد ذلك. وهذا النمط أغلبه لم يكن بأيدي المسلمين، ولم يكن الهدف المقصود منه تدبّر أحكام القرآن، ولم تكن روح التقديس والإجلال التي عرفناها في الترجمات الشرقية متوفرة فيه. وقد نشطت هذه الترجمات على أثر اندجار العرب في الأندلس ونشوء الحروب الصليبية. وتُجمع الدراسات التي أرّخت لترجمات القرآن إلى اللغات الأوروبية أن أول ترجمة في أوروبا كانت كما تروي الكتب المؤثقة، بإيعاز من القديس بطرس المبحّل رئيس دير كلوني المتوفى سنة ١١٧٥م، في دير في جنوبي فرنسا وذلك في سنة

١١٤٣م، فكلف بطرس المبجل ثلاثة رهبان: أحدهم إنكليزي يُدعى روبرت الرتيقي، والثاني ألماني يُدعى هيرمان الدماطي، والثالث إسباني بترجمة القرآن إلى اللاتينية، وتمت هذه الترجمة بالاستعانة باثنين من العرب. ووضعت هذه الترجمة تحت تصرف رجال الكنيسة ليستعملوها في استكمال دراساتهم اللاهوتية، أو القيام بأعمال التبشير الدينية، وقد كان ظهور هذه الترجمة بعد الحملة الصليبية الثانية بأربع سنوات، غير أن الدوائر الكنسية منعت طبع هذه الترجمة وإخراجها إلى الوجود؛ لأنَّ إخراجها من شأنه أن يساعد على انتشار الإسلام بدلاً من أن يخدم الهدف الذي سعت إليه الكنيسة أصلاً وهو مناهضة الإسلام، ومن طريف ما يروى أن رجال الدين في أوروبا حاربوا القرآن الكريم بإطلاق الشائعات التي تقول بأن من يترجمه أو يطبعه أو ينشره فإنه يلاقي الموت الزؤام قبل أن يحين أجله الطبيعي، وعلى الرغم من ذلك فإن حركة ترجمة القرآن وطبعه استمرت قروناً طويلة، وخاصة في ألمانيا. وظلت هذه الترجمة مخطوطة تُداول في الأديرة حوالي أربعة قرون، إلى أن قام ثيودور بيلياندر فطبعها في بال سنة ١٥٤٣م، ونُقلت بعد ذلك إلى الإيطالية والألمانية والهولندية، ولكن هذه الطبعة وُصفت بأنها لا تستحق اسم ترجمة، فالأخطاء الكثيرة، والحذف، والإضافة والتصرف بحرية شديدة في مواضع يصعب حصرها يجعل هذه الترجمة لا تشتمل على أي تشابه مع الأصل، ويقول فيها بلاشير: "لا تبدو الترجمة الطليطلية للقرآن بوجه من الوجوه ترجمة أمينة وكاملة للنص". وعلى الرغم من ذلك شكّلت هذه الترجمة النواة الأولى لسائر الترجمات الأوروبية الأخرى، بل كان لها تأثير كبير إلى درجة الاقتباس منها والسير على منهجها.

ظهرت بعد ذلك ترجمات عبر القرون اللاحقة، وعبر لغات أوروبية مختلفة، ففي القرن السابع عشر ظهرت أول ترجمة فرنسية سنة ١٦٤٧م، قام بها أندريه دي ريبور وقد تركت أثراً جيداً لفترة طويلة، حيث أعيد طبعها عدّة مرات. وتُرجمت إلى مختلف اللغات الأوروبية، منها الترجمة التي قام بها الكسندر روس إلى الإنكليزية وغلزامخر إلى الهولندية ويستنكوف وفريفكين إلى الروسية ولانج إلى الألمانية.

ولعلّ من أهمّ ترجمات القرآن في ألمانيا ترجمة رودى بارت وتعدّ أحسن ترجمة للقرآن الكريم باللغة الألمانية، بل باللغات الأوروبية عامّة، وقد حرص صاحبها على الدقة والأمانة العلمية للدرجة أنه عندما تعترضه كلمة يُشكل عليه فهمها أو لا يطمئن إلى قدرته على تحديد معناها فإنه يثبتها بنصّها العربي كما وردت في الآية، ولكن بالحروف اللاتينية لكي يتوصّل القارئ نفسه إلى فهم المعنى الذي يراه ملائماً للسياق. وجدّير بالذكر أن رودى بارت لم يقدم على ترجمة القرآن إلا بعد أن درسه في أصله العربي، ودرس الترجمات الإنكليزية والفرنسية الموثوقة، ورجع إلى مجموعة الكتب والمصادر التي تساعد على الترجمة الدقيقة للقرآن، كتفاسير الطبري والزحشري والبيضاوي.

ومن الجدير بالذكر أن الأوروبيين لا تستوقفهم آيات العبادات بمقدار ما تستوقفهم آيات المعاملات، فلذا نراهم يفتنون طويلاً بالتحليل والمقارنة والتعقيب عند آيات التشريع والميراث والقانون والتنظيم الاجتماعي وأحوال المرأة ونظام الأسرة والزواج في الإسلام، ومن هنا أطال بارت وقوفه عند الآية: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، لانه ككل المستشرقين تستوقفهم ظاهرة تعدد الزوجات التي نصت عليها الآية السابقة، ولكنه بقدرة فائقة من نفاذ البصيرة استطاع أن يربط بين أول الآية المتعلقة باليتامى والأموال اليتامى وبين آخر الآية المتعلقة بتعدد الزوجات، وأن يربط كل ذلك بالظروف السياسية والاجتماعية وخاصة أن هذه الآية نزلت بعد معركة أحد التي قُتل فيها من المسلمين عدد كبير، وترمّل على أثرها العديد من النساء. وفي القرن ذاته أيضاً ترجم الإيطالي لودفيك مركي القرآن من العربية مباشرة إلى اللاتينية سنة ١٦٩٨م، وتُعد هذه الترجمة عمدة ترجمات أوروبية كثيرة؛ لأنّ مترجمها اعتكف على دراسة القرآن أكثر من أربعين سنة، واطلع على كتب المفسرين المسلمين، مثلما فعل

قبله بارت، لذلك عدّه هنري لامنس أكثر المترجمين إنصافاً، مع أن لامنس هذا يقول: "إننا لا نملك ترجمة وحيدة للقرآن لا عيب فيها".^{٩١}

وفي القرن الثامن عشر ظهرت ترجمات عن الأصل العربي مباشرة كتلك التي نشرها جورج سال بالإنكليزية سنة ١٧٣٤م وبعيها الكبير أن سال زعم أن القرآن من صياغة محمد، وترجم القرآن سنة ١٧١٥م سافاري إلى الفرنسية، نُشرت هذه الترجمة في مكة سنة ١١٦٥هـ، وقال فيها مونتيه: إن ترجمة سافاري على الرغم من طبعها عدّة مرات طبعت أنيقة إلا أن دقتها نسبية.

وفي القرن التاسع عشر ظهرت ترجمة كزيمسكي سنة ١٨٤٠م، وتعدّ هذه الترجمة - إذا ما قورنت مع ترجمة سافاري - أكثر عراقة واستعمالاً، على الرغم من أنه تعوزها الأمانة العلمية، ودقة فهم الإعجاز والبلاغة العربية، ومع ذلك يقول عنها مونتيه: "لا يسعنا إلا الثناء على هذه الترجمة، فهي منتشرة كثيراً في الدول الناطقة بالفرنسية.

أمّا في القرن العشرين فقد كثرت على الصائد الضباب، ففي سنة ١٩٢٥م ظهرت ترجمة إدوار مونتيه التي استفادت من تدارك عيوب سابقاتها من الترجمات فامتازت بالضبط والدقة والعناية بالإخراج، وقد أحسن المترجم صنعاً إذ ألحق بها مجموعة من الفهارس المفصلة التي تخدم القارئ والمراجع.

وفي عام ١٩٤٩م ظهرت ترجمة الفرنسي بلاشير التي رتب فيها السور ترتيباً تاريخياً وهي كما يشهد العلماء المسلمون من أدق الترجمات لما يسودها من الروح العلمية والتعقيبات الموضوعية، وكثيراً ما يورد للآية الواحدة ترجمتين، يبيّن في إحداها، المعنى الرمزي، ويوضّح في الثانية المعنى الإيحائي، وهذا ما جعلها أكثر الترجمات الفرنسية انتشاراً وطلباً. وطلعت علينا في السنوات الأخيرة من القرن العشرين ترجمة للفرنسي الأصل الجزائري المولد جاك بيرك وهو صديق لبلاشير يشهد بترجمة بلاشير بأنها من أفضل الترجمات الفرنسية للقرآن، وبعد ثماني

^{٩١} - الرنداوي، حمود. ١٤٢٦هـ. أهداف ترجمات القرآن وأتماطها عبر التاريخ. مجلة التراث العربي. العدد ٩٨. ص ٢٩.

سنوات من دراسة يترك للنص القرآني، واستعانت به عشرة تفاسير قديمة وحديثة، كتفسير الطبري والزمخشري والقاسمي، جاءت متميزة، وخاصة بمقدمتها التي حلل فيها النص القرآني وأبرز ميزات ومضامينه، والإعجاز الذي يتمتع به. وعلى الرغم مما أحدثته الترجمة من ضجة كبيرة في الأوساط الفرنسية، حيث عُدَّت حَدَثًا ثقافياً بارزاً، فإن المترجم يتواضع ويرى أن عمله الترجمي لم يصل إلى مرحلة الكمال، وإنما شفيعه أنه موجه إلى المسلمين الذين يحسنون اللغة الفرنسية ولا يتقنون اللغة العربية.

النمط الثالث: شاعت في أواخر القرن العشرين ترجمات مغرضة حاكمة، قام بها نفر من أعداء المسلمين، أحسوا بلهفة المسلمين الأفارقة للتعرف إلى معاني القرآن وأفكاره، فقدموا لهم نسخاً مشوهة من النص القرآني وتفسيره، وحذفوا من المتن الآيات المتعلقة بالجهاد ومقاتلة الكفار، وعبثوا ببعض النصوص التي تتصل باليهود وموقفهم من الإسلام الحنيف، ووزعت هذه النسخ على مسلمي أفريقيا، فلما تنبه المسلمون إلى هذه المكيدة جمعوا ما أمكن جمعه منها وبدّلوا بها نسخاً من النص العثماني الصحيح المدقق، حرصاً على سلامة النص القرآني وقديسيته.^{٩٢}

والخلاصة أن القرآن الكريم تُرجم إلى أكثر من مائة لغة أوروبية، تتوزع على الشكل التالي: ٥٧ مترجمة إلى اللغة الإنكليزية، و٤٢ مترجمة إلى الألمانية، و٣٣ مترجمة إلى الفرنسية، وأن الكثير من الترجمات كانت تُصدَّر بالكلام عن تاريخ القرآن، وموضوعاته، وأسباب نزول آياته. وأحياناً بالكلام عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن الجوانب التشريعية في العبادات والمعاملات التي تضمنها القرآن الكريم.

وأما عن عدد اللغات التي ترجمت إليها معاني القرآن الكريم فتذكر البليوغرافيا العالمية لترجمات معاني القرآن الكريم التي رصدت جميع ترجمات معاني القرآن الكريم المطبوعة منذ عام ١٥١٥ - ١٩٨٠م، أن عدد اللغات التي ترجمت إليها معاني القرآن الكريم هي ٥٦ لغة،

^{٩٢} - المرجع نفسه والعدد. ص ٣١.

بلغ عدد الترجمات الكاملة الصادرة بهذه اللغات ٥٥٧، وعدد الترجمات الجزئية ٨٨٣. إلا أن محمد شيخاني يذكر أنه تمت ترجمه معاني القرآن الكريم كاملاً إلى ٧٩ لغة، وجزئياً إلى ٤٩ لغة^{٩٣}

ويذكر الباحث الدكتور محمد حميد الله أنه جمع ترجمات معاني القرآن الكريم إلى كل اللغات ونشرها في كتابه "القرآن بكل لسان" عام ١٣٦٤هـ وكان عددها في ذلك الوقت ٢٣ لغة، وفي عام ١٤٠٦هـ بلغ عدد اللغات ١٤٠ لغة أغلبها ترجمت إليها معاني القرآن الكريم ترجمة كاملة وبعضها ترجمة جزئية^{٩٤}.

المطلب الثاني: ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الصينية

دخل الإسلام الصين قبل نحو ألف وثلاثمائة سنة. في الفترة الأولى للوجود الإسلامي بالصين لم يكن بها مصحف مطبوع أو مصحف مترجم إلى اللغة الصينية، وكان نشر القرآن يعتمد على دراسة مضمونه مباشرة والتشريح الشفوية لعلماء الإسلام، وكان تعليم القرآن مقتصرًا على المساجد والأسر المسلمة. لم تبدأ ترجمة معاني القرآن إلى اللغة الصينية إلا في فترة أسرتي مينغ وتشينغ (Ming Qing). ومنذ أكثر من خمسمائة سنة، من أجل نشر الإسلام وإبراز الثقافة الإسلامية للصينيين، شرع بعض العلماء المسلمين بترجمة معاني القرآن والكتب التي تتناول موضوعات الشريعة الإسلامية والتاريخ الإسلامي. في البداية كانوا يترجمون معاني بعض الآيات للاستشهاد بها في كتبهم باللغة الصينية، ومع ازدياد حاجة المسلمين إلى معرفة

^{٩٣} - شيخاني، محمد. ١٩٨٦م. المستشرقون ودورهم في ترجمة القرآن الكريم، بحث مقدم في الندوة العالمية حول ترجمة معاني القرآن الكريم.

إسطنبول. ١٣٧-١٤٨.

^{٩٤} - حميد الله، محمد. ١٩٨٦م. فهم القرآن لمن لا ينطق بلغة الضاد، بحث مقدم في الندوة العالمية حول ترجمة معاني القرآن الكريم. إسطنبول.

ص ٤٩-٧٠.

الإسلام، حاول بعض العلماء الذين يجيدون اللغة العربية ترجمة معاني سور كاملة من القرآن وبعض الآيات التي يستخدمها المسلمون الصينيون دائماً إلى اللغة الصينية، وجمعوها في كراس وأصدروه، وذلك تيسيراً لقراءتها وحملها. بسبب العائق اللغوي بين المسلمين الصينيين والعربية، لم تظهر في الصين ترجمة موجزة لمعاني القرآن حتى القرن التاسع عشر، عندما ظهر كتاب تفسير ختم القرآن وهو تفسير لمختارات من آيات القرآن، ترجمه ما تشي بن (Ma zhi ben) وكتاب تفسير القرآن الذي ترجمه ما فو تشو، لكن حتى هذه الفترة، لم تظهر ترجمة كاملة لمعاني القرآن.^{٩٥}

وفي أواخر القرن التاسع عشر، ومع دخول الثقافات الغربية إلى الصين، وصلت إلى الصين ترجمات لمعاني القرآن باللغة الإنجليزية وغيرها من اللغات الأوروبية، وصادفت هذه الفترة الحركة الثقافية الصينية الجديدة. فبدأ بعض المثقفين والعلماء المسلمين يفكرون في ترجمة معاني القرآن كاملاً. وفي القرن العشرين، وعى المسلمون الصينيون بعمق أنه من أجل نشر دينهم الخفيف يجب أن تكون هناك ترجمة كاملة لمعاني القرآن إلى اللغة الصينية، لأن ذلك لا يساهم في نشر الإسلام في الصين على نحو أفضل فحسب بل يفيد في تعريف وتدرّيس القرآن للمسلمين الصينيين. من هذا المطلق، اعتبروا ترجمة القرآن فريضة. ومن أجل تفادي وقوع الخطأ والزلل في الترجمة وضعوا بعض الضوابط للترجمة والشروط للمترجمين كأن يجب على المترجمين أن يجيدوا اللغتين العربية والصينية، وليس هذا فحسب، بل أن يكونوا على معرفة جيدة بقواعد الإسلام. ثم يترجموا معاني القرآن المنزل باللغة العربية إلى اللغة الصينية مباشرة وليس عبر لغة أخرى وسيطة. فبدأت في مدن بكين وتيانجين وشانغهاي وغيرها حركة الترجمة الكاملة لمعاني القرآن التي قادها العلماء المسلمون الصينيون. ففي عام ١٩١٤م، بدأ العالم المسلم الكبير الإمام وانغ جينغ تشاي (Wang jing zhai) ترجمة معاني القرآن إلى اللغة الصينية الكلاسيكية واللغة الصينية الحديثة. ثم تابعت الترجمات

^{٩٥} - ينجي، لين سونغ. ٢٠٠٧م. القرآن الكريم في الصين. نينغشاي: دار النشر الشعبية. ص ٣٣.

الأخرى نحو (القرآن باللغة الصينية وملحقاته) الذي ترجمه ليوجين بياو (Liu jin biao) وصدر في بكين عام ١٩٤٦م، و(معاني القرآن) للأستاذ يانغ تشونغ مينغ (Yang zhong ming) الذي صدر في عام ١٩٤٧م، وفي عام ١٩٤٦م صدر المجلدان الأول والثاني من (القرآن باللغة الصينية) الذي ترجمه تشانغ بينغ دوه (Zhang bing duo) على طريقة الشعر النثري الصيني وهو شكل أدبي فريد. و(معاني القرآن) للأستاذ يانغ تشونغ مينغ (Yang zhong ming) الذي صدر في عام ١٩٤٧م. و(تفسير القرآن الكريم باللغة الصينية) لشي تسي تشاو (Shi zi zhou)، طبع في تايوان، عام ١٩٥٨م. وكتاب (ترجمة القرآن باللغة الصينية) للأستاذ محمد مكيان الذي صدرت طبعته الأولى في عام ١٩٨١م، والذي صدرت الطبعة الثانية منه في عام ١٩٨٦م في الكويت، وصدرت الطبعة العربية الصينية لها في المملكة العربية السعودية في عام ١٩٨٧م عن مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة. وكتاب (ترجمة القرآن بنظام القوافي) للأستاذ يحيى صنوبر لين سونغ (Lin song) الذي صدر عام ١٩٨٨م، والذي استخدم فيها الأستاذ لين نظام القوافي للغة الصينية لتجسيد جاذبية علم البديع التي يتحلى بها القرآن. و(تفسير القرآن باللغة الصينية) للأستاذ تونغ داو تشانغ (Tong dao zhang) الذي صدر في عام ١٩٨٩م. و(ترجمة القرآن) لتشاو تشونغ شي (Zhou zhong xi) الذي ينتمي إلى المدرسة القاديانية بباكستان، و صدر الكتاب في عام ١٩٩٠م بسنغافورة. وكتاب (ترجمة القرآن) للأستاذ ما تشن وو (Ma zhen wu) الذي صدر في عام ١٩٩٥م، وكتاب (ترجمة القرآن) لشيغ شيا خواي (Sheng xia huai) الذي صدر في تايوان عام ١٩٩٦م. و(تفسير القرآن باللغة الصينية) لتشانغ تشين تشيان (Zhang chen qian) الذي أصدر الكتاب باسم أمه السيدة لي جين يوان (Li jin yuan) عام ٢٠٠٥م. و(تفسير القرآن بالأحاديث النبوية) للأستاذ ما تشونغ فانغ (Ma zhong gang) الذي صدر عام ٢٠٠٦م.^{٩٦}

والجدير بالذكر أن أقدم الترجمات الكاملة لمعاني القرآن والتي ظهرت قبل قيام علماء المسلمين بترجمة معاني القرآن الكريم كاملاً (كه لان جينغ) (Quran) الذي نقلها من الترجمة اليابانية تيه تشنغ (Tie zheng)، وهو غير مسلم، وصدرت في بكين عام ١٩٢٧م. وهناك عمل آخر يعتبر من أقدم الترجمات الكاملة لمعاني القرآن هو (ترجمة القرآن باللغة الصينية) الذي أصدرته دار النشر بشانغهاي (Shanghai) في عام ١٩٣١م، قام بالترجمة عن الإنجليزية جي جيويه مي (Ji Jue mi)، وهو غير مسلم أيضاً. غير أن هؤلاء المترجمين غير المسلمين كانت تعوزهم المعارف الإسلامية، ولم يكن أي منهم يعرف اللغة العربية، ولهذا جاءت ترجماتهم لمعاني الكتاب العظيم صعبة الفهم وبها أخطاء كثيرة، فلم تنتشر على نطاق واسع.^{٩٧}

وقبل أن نشير إلى أهم المؤسسات التي تعنى بترجمة القرآن الكريم يجب أن نصرح أولاً بأن معظم الترجمات الصينية لمعاني القرآن الكريم يغلب عليها السمة الفردية بمعنى أن يقوم غالباً عالم من علماء المسلمين بترجمة القرآن شعوراً منه بضرورة نشر تعاليم القرآن بين الناس أو تداركاً لما في ترجمات سابقة لمعاني القرآن من قصور وأخطاء فيتعاون مع جماعة من المحسنين المسلمين الداعمين للمشروع فتجز الترجمة بجهد الشخص ثم يتم النشر. إلا أن هناك بعض الترجمات للقرآن الكريم تمت بخطط ودعم المؤسسات، منها ترجمة جي جيويه مي للقرآن الكريم والذي يعتبر ثاني من ترجم القرآن كاملاً إلى الصينية وهو غير مسلم وكان الرجل صاحب الخزانة لأحد أثرياء اليهود المستوطنين بالصين يحب العلم ويحب بصفة خاصة قراءة وترجمة ونشر الكتب الدينية للأديان الكبرى في العالم فجمع عدداً من علماء المسلمين الصينيين الذين يجيدون اللغتين العربية والصينية وأشرف على الترجمة وبعد إنجازها وضع اسمه ك مترجم على عادته في ترجمة كتب الأديان لأن العمل تم تحت إشرافه ودعم مؤسسة سيده. ومثال آخر هو ترجمة لتشاو تشونغ شي (Zhou zhong xi) لمعاني القرآن والذي ينتمي إلى

المدرسة القاديانية، تم عمله بتخطيط ودعم بل وتكليف من الجماعة القاديانية وصدر الكتاب في عام ١٩٩٠م بسنغافورة.

أما أشهر الترجمات الصينية للقرآن الكريم فهو أكثرها انتشارا وهو ترجمة محمد مكين لنشرها عن طريق الجمعية الإسلامية الصينية ودار النشر الحكومية بترخيص خاص وبأعداد كبيرة، ثم إعادة نشرها عن طريق مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة وتوزيعها مجانا عبر السفارة السعودية لدى الصين وفي مواسم الحج في كل عام. و يأتي بعد ترجمة محمد مكين ترجمة الشيخ وانغ جينغ تشاي (Wang jing zhai) وهي اشتهرت بقدّم تاريخ صدورهما وكثرة تداولها بين المسلمين وكذلك لجودة ترجمتها لمعاني القرآن الكريم بصفة الشيخ وانغ (Wang) من علماء الشريعة. ثم تأتي الترجمات الصينية الأخرى تشتهر بين المسلمين بدرجات متفاوتة.^{٩٨}

وأما أشهر المترجمين للقرآن الكريم في الصين فإثنان^{٩٨} وهما الشيخ محمد مكين والشيخ إلياس وانغ جينغ تشاي (Wang jing zhai)، والسبب الرئيس في ذلك أنهما من علماء الشريعة الذين قضوا حياتهم في تحصيل العلم الشرعي داخل الصين وخارجها مع إجادة اللغتين الصينية والعربية ومن ثم كانت ترجمتهما للقرآن الكريم تتصف بالدقة في استخراج المعاني و الضبط في تعبير الألفاظ والأناقة في اختيار الكلمات والسهولة في تأدية المفاهيم.

المطلب الثالث: دور ترجمة معاني القرآن الكريم في دعوة غير المسلمين

من الخطأ الفاحش أن يسهب العلماء في الكلام عن الدعوة وأهميتها من غير أن يتطرقوا إلى الترجمة وأهميتها في إيصال الدعوة إلى الناس، ذلك أن المعنيين بالدعوة هم البشر جميعا

^{٩٨} - انظر التعريف بهما في الفصل الخامس من هذه الرسالة.

ومعظمهم من الأعاجم. فالصحيح هو ألا يتحدث عن الدعوة إلا ويقترب منها التنويه على أهمية الترجمة وبيان شروطها ومواصفاتها المطلوبة في تكوين الدعاة وإنجاح الدعوة.

عندما نتحدث عن دور ترجمة معاني القرآن الكريم في دعوة غير المسلمين، لا ينبغي أن ينحصر الحديث على ترجمة معاني القرآن الكريم من نصه العربي إلى لغات أخرى فحسب، بل يجب أن يغطي جميع أبعاد الترجمة، أعني تلك الجوانب التي تتعلق بالقوة التأثيرية لعملية الترجمة وهي ترجمة معاني القرآن الكريم من نصه العربي إلى لغات أخرى بشروطها ومواصفاتها المطلوبة بالدرجة الأولى، ثم أثر الترجمة الخاطئة وغير المأمونة في إعاقه فهم القرآن الكريم فهما صحيحاً والمنسبة لغير الناطقين بالعربية بل وتحريف معاني القرآن وتشويه صورة الإسلام عن عمد، كما فعله أعداء الإسلام وما انفكوا يفعلون في كل عصر عبر الترجمة، وفي الدرجة الثالثة نشر الوعي الثقافي الصحيح عن أهمية اللغة العربية في فهم القرآن والإسلام، حتى لا يفهم خطأ أن الترجمة يمكن أن تحل محل الأصل، ذلك لأن الخطأ أو القصور في جانب من هذه الجوانب يؤدي إلى عواقب خطيرة واتجاهات خاطئة في دعوة الناس إلى الإسلام.

أما دور ترجمة معاني القرآن الكريم في دعوة غير المسلمين كنتائج، فله شواهد تاريخية وواقعية، فإن توسع رقعة نشر الإسلام في العالم واستمراره ودخول الأعاجم في الإسلام عبر العصور من غير انقطاع خير دليل على دور الترجمة الفعال في نشر دعوة الحق على وجه الأرض وهو تكليف إلهي لجميع من بلغه دعوة الحق من المسلمين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ الْأُولَى الْأَلْبَابِ﴾^{٩٩} فنحن مكلفون بتبليغ هذه الرسالة اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم، الذي لم يكتف بالبلاغ والتبيين لقومه فقط، بل كتب الرسائل داعياً الأمم المعروفة من حوله في ذلك الحين، حتى أرسل إلى الملوك والرؤساء، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ

يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ^{١٠٠}. وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتبليغ فقال: (بلغوا عني ولو آية)^{١٠١}.

وأيام دخول الإسلام إلى بلاد العجم، كان الدعاة يشرحون ويفسرون للناس بلسانهم^{١٠٢}، بينما كانت اللغة العربية آنئذ في موقع القوة والعزة والمنعة، تفرض نفسها على الأمم، حتى أن بعض هذه الأمم قد كتبت لغاتها بالحروف العربية. ورسالة النبي إلى هرقل حيث فيها بعض آية، بمثابة إذن وإشارة إلى ترجمة تفسير الآية الكريمة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن هرقل لا يعرف اللسان العربي، ويعلم تبعاً أن الرسالة ستترجم إلى اللغة التي يعرفها هرقل، وهي اللغة الرومية. وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (ثم إنه يرد علي أشياء أكره أن يقرأ، أفطبق أن تعلم السريانية؟ قلت: نعم، فتعلمتها في سبع عشرة سنة)^{١٠٣}.

ومن الصحابة من كان يحسن الفارسية والرومية والحبشية كسلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي.

والترجمة الصحيحة المنشودة لها شروطها المطلوبة. يعلم الجميع أن الترجمة فن عسير، يقتضي موهبة ودراية كبيرة باللغة المقول منها والمقول إليها.

تعريف الترجمة:

تطلق الترجمة في اللغة العربية على معان عدة منها:

١- تبليغ الكلام لمن لم يبلغه^{١٠٤}.

^{١٠٠} - القرآن. المائدة ٥: ٦٧.

^{١٠١} - تم تخريجه في صفحة ٤٨.

^{١٠٢} - كالم، محمد محمود. ضوابط وفوائد ترجمة تفسير القرآن الكريم. مجلة المعرفة الأرشيفية الالكترونية. العدد ١٦٢. ص ١١.

^{١٠٣} - ابن عبد البر. ١٩٨٣م. العقد الفريد، تحقيق دكتور مفيد محمد قميحة. بيروت: دار الكتب العلمية. ط ١. ج ٤. ص ٢١٦.

^{١٠٤} - الزرقاني، محمد عبدالعظيم. ١٩٩٦م. مناهل العرفان في علوم القرآن. بيروت: دار الفكر. ط ١. ٥/٢.

منه قول الشاعر:

إن الثمانين وبلغتها
قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

٢- تفسير الكلام وبيانه بلغته التي جاء بها:

ومنها قول الرسول صلى الله عليه وسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه ترجمان القرآن^{١٠٥} (أي مفسره ومبينه وشارحه)، وربما يدخل في هذا التعريف قول الزمخشري: (كل ما ترجم عن حال شيء فهو تفسرته)^{١٠٦} وجاء في تاج العروس: (والترجمان المفسر للسان، وقد ترجم عنه إذا فسر كلامه)^{١٠٧}

٣- تفسير الكلام بلغة غير لغته.^{١٠٨}
جاء في لسان العرب وفي القاموس أن ترجمان هو المفسر للسان، وقال شارح القاموس ما نصه: وقد ترجمه وترجم عنه: إذا فسر كلامه بلسان آخر. قاله الجوهري.^{١٠٩}

٤- ترجمة الكتاب أو ترجمة فلان.^{١١٠}
ترجمة الكتاب يقصد منها فاتحة الكتاب (التعريف به)، وترجمة فلان: ذكر سيرته وتاريخ حياته، ولخص المعجم الوسيط هذه التعريفات بقوله: ترجم الكلام بينه ووضحه، وترجم كلام غيره وعنه نقله من لغة إلى أخرى، والترجمة: ترجمة فلان سيرته وحياته^{١١١}

١٠٥- صحيح، أخرجه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الله. الحاكم. ٤١١. المستدرک على الصحيحين. بيروت: دار الكتب العلمية.
ط ١. كتاب معرفة الصحابة. باب ذكر عبد الله بن عباس بن عبد المطلب. ج ٣: ص ٦١٨. # ٦٢٩١.
١٠٦- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر. ١٩٩١م. أساس البلاغة. تحقيق محمود محمد شاكر. القاهرة: مطبعة المدني. ص ٤٧٣.
١٠٧- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني. د.ت. تاج العروس من جواهر القاموس. دار الهداية. ٢١١/٨. باب ترجم.
١٠٨- الزرقاني، محمد عبدالعظيم. مناهل العرفان ٢/٢٦.
١٠٩- ابن منظور. د.ت. لسان العرب. القاهرة: دار المعارف. ٢٦/٢. باب ترجم. والقاموس المحيط. ومعجم الصحاح. ص ٧٨٠.
١١٠- الذهبي، محمد حسين. ٢٠٠٠م. التفسير والمفسرون. القاهرة: مكتبة وهبة. ط ٧. ٢٣/١.
١١١- مجمع اللغة العربية. ٢٠٠٤م. المعجم الوسيط. مكتبة الشروق الدولية. ط ٤. ٨٣/١.

٥- نقل الكلام من لغة إلى أخرى: ^{١١٢}

جاء في لسان العرب ^{١١٣}: الترجمان بالضم والفتح: هو الذي يترجم الكلام أي ينقله من لغة إلى أخرى. بناء على هذه المعاني يكون المراد بالترجمة هنا أمرين ^{١١٤}:

الأول: الترجمة الحرفية: وهي نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى مع مراعاة الموافقة في النظم والترتيب والمحافظة على جميع معاني الأصل المترجم.

الثاني: الترجمة التفسيرية أو المعنوية: وهي شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى بدون مراعاة لنظم الأصل وترتيبه وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه. وعلى هذا فالمترجم ترجمة حرفية يقصد إلى كل كلمة في الأصل فيفهمها، ثم يستبدل بها كلمة تساويها في اللغة الأخرى، مع وضعها موضعها وإحلالها محلها، وإن أدى ذلك إلى خفاء أو ركاسة المعنى واضطراب العبارة بسبب اختلاف اللغتين في موقع استعمال الكلمة أو الضمير.

أما المترجم ترجمة تفسيرية فهو يقصد إلى المعنى العام للنص المراد ترجمته فيصوغه في عبارات تؤدي معناه من اللغة الأخرى من غير مراعاة لمفردات الأصل ^{١١٥}.

ويتضح الفرق بين القسمين حينما تضرب مثالا للترجمة بهما على إكناهما في آية من القرآن الكريم وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ ^{١١٦}. ففي الترجمة الحرفية تأتي بكلام من لغة الترجمة يدل على النهي عن ربط اليد من العنق، وعن مدها غاية المد مع رعاية ترتيب الأصل ونظامه، بأن يأتي بأداة النهي أولا، يليها الفعل المنهي عنه متصلا بمفعوله ومضمر فيه فاعله وهكذا، ومثل هذا التعبير في اللغة المترجم إليها قد يخرج في أسلوب غير مألوف في تفهيم المترجم لهم، وربما لا يؤدي المعنى الذي قصده

^{١١٢} - الزرقاني. مناهل العرفان ٦/٢.

^{١١٣} - ابن منظور. لسان العرب ٢٦/٢ باب ترجم.

^{١١٤} - الذهبي، محمد حسين. ٢٠٠٠م. التفسير والمفسرون. مكتبة وهبة. ط ٧. ٢٣/١ - ٢٤.

^{١١٥} - الزرقاني. مناهل العرفان ٧/٢. الذهبي، محمد السيد حسين. التفسير والمفسرون. القاهرة: مكتبة وهبة. ج ١. ص ٢٧.

^{١١٦} - القرآن. الإسراء ١٧: ٢٩.

القرآن، بل قد يستنكر قارئ تلك اللغة هذا الوضع الذي ينهى عنه القرآن ويقول في نفسه: إنه لا يوجد عاقل يفعل بنفسه هذا الفعل الذي نهى عنه القرآن لأنه مثير للضحك والسخرية، ولا يدور بخلد المعنى الذي أراده القرآن، وقصده من وراء هذا التشبيه البليغ وما يرمي إليه الأصل من النهي عن التقتير والتبذير.

فطالما لا يتوفر في الترجمة الحرفية الشرطان الذين أولهما وجود مفردات في لغة الترجمة للمفردات في لغة الأصل، وثانيهما تشابه اللغتين في الضمائر المستترة والروابط التي تربط الكلمات بعضها ببعض، وتطابق في مواقع أحوال الكلمات، يكون من المتعذر بل من المستحيل ترجمة نطل ترجمة حرفية فضلاً عن ترجمة القرآن الكريم، لأن معناه الإتيان بمثل هذا القرآن بلغة أخرى.^{١١٧}

من أهم فوائد الترجمة:

١ - كشف النقاب عن جمال القرآن الكريم ومحاسنه:

كم من جمال تذوب به النفس تأثراً، وتختلج منه الجوانح طرباً، ولا يحده الفكر والعقل، وكم من حقيقة جامئة وراء دلالات النطق واللفظ والكلام، يقف الإنسان مشدوهاً تحت ظلال إعجازه فلا يعبر عنها إلا بالحيرة الخائفة أمام شاطئ هذا اليم الذي سجد لبيانه البيان، ولا يظهر منها سوى صادق الإحساس، إنه جمال القرآن الكريم، وروعة ألفاظه، وعمق مراميه ودقة بيانه. قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾.^{١١٨}

إن أول ما يلفت انتباه الإنسان في أسلوب القرآن الكريم خاصية تأليفه الصوفي في شكله وجوهره، وفي جرس حروفه، بحركاتها وسكناتها، وبمداتها وغماتها، وباتصالاتها وسكناتها، فإذا سمع هذا اللحن المتنوع والمتجدد، فسيجد نفسه أمام لحن غريب وعجيب، إنه الجمال

^{١١٧} - الرومي، فهد بن عبد الرحمن. ٢٠٠٣م. نقل معاني القرآن الكريم إلى لغة أخرى أترجمه أم تفسير. الرياض. ط ١. ص ٢٦.

^{١١٨} - القرآن. الكهف ١٨: ١٠٩.

التوقيعي في القرآن الكريم. إن الجمال القرآني كشأن الأصداف بما تحويه من اللائى النفيسة، فإن الله تبارك وتعالى، قد أجرى سنته في نظام هذا العالم أن يغلف جلائل أسرارها، بأستار لا تخلو من متعة وجمال، فإن أنت كشفت الصدفة عن درها، وتغلغلت من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي، تجلى لك ما هو أبهى وأبهر ولقيك ما هو أروع وأبدع.

إن كلمات القرآن الكريم لها مميزاتا وخصائصها وفروقها، وليست من المترادفات في شيء فلا تستطيع أن تبدل كلمة أو تغير عبارة أو تقدم جملة، فكل كلمة تمسك بالأخرى كالذرة في مجالها المغناطيسي المحكم، ولكل منها دلالة الخاصة، وإشارته المتميزة، وإيحائه الذي لا يشترك فيه غيره، وتصويره الذي يفرد به عن سائر نظائره. لقد عبر الله تعالى عن الصبر على المصيبة بقوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^{١١٩} وحينما عبر عن على أذى الآخرين، أضاف حرف اللام للتوكيد، فقال الله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^{١٢٠} لأن الصبر على أذى الآخرين، وأنت تستطيع أن ترد عليه بأذى مثله، يحتاج منك إلى عزم أكبر بخلاف صبرك على المصيبة التي لا تستطيع ردها وليس لك حيلة فيها وكثرة المبنى تدل على كثرة المعنى. وهكذا يظهر جمال القرآن الكريم، ويكشف النقاب عن محاسنه، إذا هو ترجم إلى اللغات العالمية بشروطه السابقة.

٢ - تبليغ دعوة القرآن الكريم بلفظه ومعناه، لأنه دليل إنسانية كافة:

من فوائد الترجمة لتفسير القرآن الكريم، براعة ذمة المسلمين من واجب ديني هو تبليغ القرآن بلفظه ومعناه للعالم أجمع، وبكل وسيلة تصل إليها قدرتهم، فهو أمانة عهد بها إلى المؤمنين ليقوموا بحق هذه الأمانة، بالتبليغ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. قال الله تبارك وتعالى: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَيَلْعَلُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^{١٢١}.

^{١١٩} - القرآن. لقمان ٣١: ١٧.

^{١٢٠} - القرآن. الشورى ٤٢: ٤٣.

^{١٢١} - القرآن. إبراهيم ١٤: ٥٢.

فإذا أردنا التبليغ والبيان للمسلمين، فلا بد من تفاسير مترجمة كمرحلة للتفهم والتبليغ، ومهمة التبليغ هذه تحتاج إلى مؤسسة قرآنية عالمية تعني بالقرآن وتفسره بكل لسان وطبعه وتوزيعه ورصد ما يظهر من الترجمات الفاسدة، وتتبع الناشرين لهذه الترجمات قضائياً، كما حذرت دائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدبي من تداول أو طباعة أو نشر ترجمة لمعاني القرآن الكريم باللغة الروسية للدكتور محمد سعيد الرشد لأنها تحتوي على مقدمة شيوعية وأفكار صليبية ويهودية بالإضافة إلى مفاهيم غير دقيقة حول خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم ومقومات نبوته.

٣- إحياء لغة العرب وتعريب الأعاجم:

إن اللغة من الأمة أسس وحدتها ومرآة حضارتها، فكيف إذا كانت لغة قرآنها، الذي تبوأ الذروة، فكان مظهر إعجاز لغتها، ومستودع عقيدتها. واللغة وطن روحي يؤوي من حرم وطنه على الأرض، ومظهر من مظاهر التاريخ، والتاريخ صفة ثابتة للأمة لا تزول إلا بزوال الجنسية، والقرآن جنسية لغوية يميز به المسلم، وليست الأمة بحماية وطنها وأرضها فقط، بل بحماية لغتها من الضعف والضياع والذين لا يولون القرآن كبير عناية، في عروبتهم نقص كبير، فبين العربية والقرآن أواصر لا تقطع، وصلات لا تدفع ولا يطعن في العربية باسم الإسلام إلا شعوي، ولا يطعن في الإسلام باسم العربية إلا جاهل أو غي.

٤- دفع الشبه التي ألصقها أعداء الإسلام بالقرآن الكريم:

ومن فوائد ترجمة تفسير القرآن الكريم، دفع الشبه والأباطيل التي ألصقها ولفقها أعداء الإسلام ونسبوها إلى القرآن كذباً وزوراً وبهتاناً وفحشاء ثم أضلوا هؤلاء المسلمين الذين لا يجيدون اللغة العربية، على شكل ترجمات مزعومة للقرآن الكريم، أو مؤلفات علمية وتاريخية للطلاب أو دوائر معارف للقراء، أو دروس ومحاضرات للجمهور، أو صحف وجرائد ومجلات للعامة والخاصة. وإذا قمنا بترجمة تفسير القرآن الكريم مع مراعاة شروط التفسير والترجمة، لزلزلنا أركان هذه الأكاذيب والأباطيل، وأزلنا هذه الحواجز والعقبات أمام طلاب

الحق من الأمم الأجنبية.

والأكاذيب التي ألصقوها بالإسلام كثيرة منها ما ذكره الأستاذ محمد فريد وجدي حين قال: "قرأت في مجلد سنة ١٩١٦م من مجلة الحياة والعلم الفرنسية (La vie et la Science) بحثاً لأحد علماء الحيوانات في الجراد قال فيه: (جاء في القرآن أن الجراد الواحدة تضع تسعاً وتسعين بيضة، وإن وضعت ما يتمم المائة لم يبق في الأرض متسع لغيرها). فترجمة تفسير القرآن الكريم على الوجه المطلوب لإظهار الحقيقة، تفضح الأكاذيب والأباطيل والافتراءات والشبهات التي ألصقوها بالقرآن الكريم، وكفى بهذه الفائدة فضلاً من فوائد الترجمة لتفسير القرآن الكريم.^{١٢٢}

والواقع أن الحضارة الإسلامية عريقة العلوم والمعارف أصيلة المثل والقيم، بمرت العالم كله بمنظومتها المعرفية، وأقامت للبشرية صرحاً من المعارف والعلوم ما زال شاخصاً شامخاً في ضمير العقل الإنساني. ومثل هذه الحضارة الشماء لا يليق بها أن تتوارى عن أعين الخلق وتشترنق مستترة عن احتياجات الإنسانية بزعم احترازها باللغة العربية الأصيلة، أو بزعم أنها غنية بنفسها، أو بزعم عدم قدرتها على منافسة الزحف الحضاري الغربي.

فلقد اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم ترجماناً هو زيد بن ثابت أمره أن يتعلم السريانية فتعلمها في بضعة عشر يوماً^{١٢٣}. واستطاع القرآن أن يكون كتاب البشرية الأول في خلال عشر سنين عندما استقر في وجدان الشعوب التي فتحت بلادها المسلمون الأول. وكان ترجمة التراث العربي هو السلاح الثاني في الفتوح الإسلامية حتى غابت اللغة العربية هي لغة الثقافة والمعرفة، لأنها صارت اللغة الوسيطة بين كل الشعوب لنوال العلوم الراقية.

١٢٢ - كالم، محمد محمود. ضوابط وفوائد ترجمة تفسير القرآن الكريم. مجلة المعرفة الأرشيفية. العدد ١٦٢. ص ٢١.

١٢٣ - حسن صحيح، أخرجه الترمذي في سننه من حديث زيد بن ثابت. الترمذي. ١٣٩٥هـ. سنن الترمذي. مصر: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي. ط ٢. أبواب الاستئذان والآداب. باب ما جاء في تعليم السريانية. ج ٥: ص ٦٨. # ٢٨١٥. وقال الألباني: حسن صحيح. وأخرجه أحمد في مسنده من حديث زيد بن ثابت، المسند. أحمد. ١٤٢١هـ. المسند. بيروت: مؤسسة الرسالة. ط ١. ج ٣٥: ص ٤٦٣. # ٢١٥٨٧.

وبدأ الضعف يدب في أوصال الثقافة الإسلامية يوم انتدب بعض ضعاف النفوس أنفسهم لترجمة علوم الحضارات الأخرى إلى اللغة العربية، واشتغلت الحركة الثقافية بهذا الزخم الفارغ، الذي كان نفعه في ميزان الحضارات الأخرى؛ إذ جعلت المعايير الفلسفية اليونانية هي الحاكمة على الحق المطلق في النظام المعرفي الإسلامي وصار القرآن نفسه يحاكم إلى منطق أرسطو وأفلاطون، وشغل المسلمون دهوراً بالنزاع بين الإشراقيين والرواقيين، وكان الجاهل بعلوم تلك الحضارات الوافدة معذوفاً فيمن لا يوثق بعلمه أصلاً وإن كان إماماً من أئمة الدين. كل ذلك حينما انعكس الدور الأصيل الذي كانت تقوم به الفتوحات الإسلامية ألا وهو غزو العقول والقلوب بإيصال معاني هذا الدين المتين. وقد فطن الاستعمار (وإن شئت فقل: الاستخراب) لدور الترجمة في توطين الثقافة الغازية، فأسس بجوار الترسانات العسكرية الحارقة هيئات علمية راقية المستوى كانت مهمتها مساعدة الزحف العسكري عبر استعراض ثقافة المستعمر بلغة الدولة المغزوة، وعندما ظهر الفرق جلياً بين تخلف الدول المغزوة وإمكانيات الدول الاستعمارية في المجال الاقتصادي والعسكري وفي المجالات المدنية المتنوعة تقبلت الناس هزيمتهم باقتناع وراحت نفسية الهزيمة تتغلغل في جذور الضمير حتى مسخت الأفعدة ووجدنا من أفراد الأمة الإسلامية من ينادي بكتابة اللغة العربية بحروف لاتينية.

تلك الهيئات العلمية هي المحافل الاستشرقية التي كانت تلعب دوراً لا يقل خطورة عن الدور التنصيري الذي صاحب الاستعمار في مراحله المختلفة.

والغريب أن جل الباحثين لم يفهموا أو لم يحاولوا أن يتفهموا أسباب قيام المحافل الاستشرقية بترجمة كثير من المراجع العربية إلى لغاتهم اللاتينية على اختلافها. فبلغت سذاجة البعض إلى الزعم أن المستشرقين قد انبهروا بالثقافة العربية فكانوا خداماً في محاربا وسدنة في معبدها هيأها بجماها وعظمتها. ونحن لا ننكر وجود المستشرقين المنصفين لكن عددهم أو انتماءاتهم لا تمت بصلة للدور الجمعي الذي كان يقوم به جل المستشرقين ألا وهو القيام بحركة ترجمة واسعة النطاق من وإلى اللغة العربية بغرض أن يتخصصوا هم في اللغة العربية

فيحتلوا مرجعيتها دون علماء المسلمين أنفسهم.

وهذا ما قد حدث بالفعل، فمن الذي ينكر عظمة مشروع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، أو من من الأدباء يستطيع أن يتعامى عن الدور الأدبي للمستشرقين.

وفي غضون بضعة عقود أواخر القرن التاسع عشر كانت الأكاديميات الغربية موئلا لكثير من الباحثين العرب والمسلمين لدراسة اللغة العربية والإسلام نفسه، وصارت دكتوراه السوربون أو دكتوراه الدولة من فرنسا وأكسفورد وهارفارد من إنجلترا تهيم صاحبها لتبوء أعلى المناصب العلمية في جامعات بلاده.

وصار بعض الأكاديميين يفتخرون أنهم درسوا آداب اللغة العربية في أروقة جامعات أوروبا، والأنكى أن منهم من يزعم أنه درس الحديث أو التاريخ الإسلامي أو سيرة الخلفاء على يد أساتذة الكلاسي في الجامعات المسيحية. لكن المشاهد لكل ذي لب أن الدراسات العربية والإسلامية في تلك الجامعات لا تتم باللغة العربية، كما ندرس مثلا الأدب الإنجليزي باللغة الإنجليزية، بل إن كل الدراسات بما في ذلك البحث الذي يتقدم به الباحث تتم بغير اللغة العربية، لا شيء إلا لأن المشرفين أعاجم، والمراجع التي يطلب الباحث العربي والمسلم بالرجوع إليها جلها كتبه المستشرقون، بلغة الأعجمية.

وهكذا نرى كيف أن حركة الترجمة التي قام بها المستشرقون كان لها دور واسع بعد ذلك في تبوء الثقافة الغربية منصب المرجعية في العلوم اللغوية العربية والإسلامية أيضا. ونحن إذا أردنا أن نستعيد المرجعية العلمية للحضارة الإسلامية في إطار لغتنا وديننا على الأقل فلا بد من القيام بحركة ترجمة واسعة لعلومنا الإسلامية واللغوية بحث نكون - نحن - المتحدثين باسم لغتنا وديننا لا أن يكون وسطاء أعاجم أعلاج هم الناطقون الرسميون باسم الإسلام.

إن طموح الدعاة يجب أن يتجاوز مجرد ترجمة معاني القرآن إلى ترجمة التراث الإسلامي الأصيل، حتى يقرأ العالم عن ديننا كما نفهمه نحن لا كما يفهمه الأعاجم. وهذا يستتبع بالضرورة أن يكون من بين أبناء الأمة عامة والدعاة المخلصين خاصة من يتقن لغات الأمم

حتى تأخذ حركة الترجمة جانب الأصالة، وتأمين التحريف، وتضمن الأمانة في النقل والصياغة.

ولا ريب أن حركة الترجمة التي نعينها تحتاج إلى دعم دولي أو معونة هيئات إسلامية عالمية، وهي أشبه بالدور الجهادي الذي تقوم به هيئات الإغاثة في المناطق الإسلامية المنكوبة، لأننا لا نرى نكبة أعظم من أن نتعلم الدين من المنابع التي تزودنا أعداؤنا أو من تشوب عقيدته شوائب الأباطيل والانحرافات.

وإضافة إلى ذلك لا بد أن يتجاوز مع حركة الترجمة حركة علمية بحثية راقية المستوى تقوم بتعقب كتابات المستشرقين والرد عليها بنفس اللغة سواء عبر طبع كتب مستقلة أو في دورياتهم العلمية أو على صفحات الإعلام أو حتى على صفحات الإنترنت.

وها هي ذي قوى الرقعة والحوسبة المتشعبة تنفث سمها بكل لغات العالم عبر الجلات التي تصدرها سفاراتها بلغات تلك البلدان، وترصد ميزانيات ضخمة لمساعدة أقليائها في كل العالم عبر المنح الدراسية.

وها هي ذي القاديانية والبهائية تحرض على طبع أدبياتها بكل لغات العالم مع الاهتمام باللغات العلمية كالإنجليزية والفرنسية والعربية، مما يبيك - أيها الغيور على دينك - أن الترجمة سلاح ماضٍ في نشر الأفكار^{١٢٤}

هذا ولا ينبغي لأحد أن يخطئ فهما من التأكيد على أهمية الترجمة أن الترجمة يمكن أن تحل محل الأصل - اللغة العربية ومن ثم يتكل على الترجمة تمام الاتكال في فهم الإسلام بصفة عامة وفهم القرآن الكريم على وجه الخصوص ناسيا أن هناك كثيرا من الكلمات القرآنية والتعابير الشرعية في نصها العربي لا يمكن أن تترجم إلى أي لغة أخرى بل ويتغير المعنى تماما أو يسقط أهم عناصر المعاني منها، فينبغي ألا يغفل المسلمون مع الاعتماد على

^{١٢٤} - رضا آل صمدي. ثلاثون طريقة لخدمة الدين. ص ٢٨.

الترجمة في نشر الدعوة الإسلامية والاهتمام بها عن أن يبذلوا أقصى الجهود في نشر اللغة العربية بين أبناء المسلمين والتوسع في استخدام الكلمات العربية لبيان المفاهيم الإسلامية في لغاتهم الأم، حتى ترسخ تلك المفاهيم مع بناها العربية في عقول الناس ومن ثم تدخل في قواميسهم اللغوية وتصبح جزءا من لغاتهم وثقافتهم وهذا بلا أدنى شك سيسهم إسهاما فعالا في دفع المسلمين إلى فهم الإسلام من معينه الصافي والحفاظ على قداسة القرآن الكريم من دسائس الأعداء ومكائد المحرفين.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA